

382

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

عشيق الصين الشمالية

(رواية)

تــألــيــف: مارغريت دوراس

ترجمة وتقديم: محمد عزيز الحصيني

مــراجــعــة: د. ليلى عثمان فضل

فبراير 2010



الفنانة: بشرى هباد الظفيري
لوحة من معرض الشباب التشكيلي الثاني
صيفي ٢٠٠٧











إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الإصدارت الدورية







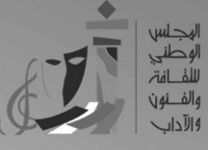


المسرح العالمي



الإصدارت الدورية

أصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب



المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
يعلن عن فتح باب الترشح

لجائزة الدولة التشجيعية

2010

من ١ فبراير وحتى ٢٩ أبريل ٢٠١٠
في المجالات التالية:

أولا: مجال الفنون (خمس جوائز):

أ- الفنون التشكيلية والتطبيقية (الرسم)
ب - التمثيل
ج - الإخراج المسرحي
د - التأليف الموسيقي
هـ - الدراسات النقدية في الفنون الموسيقية

ثانيا: في مجال الآداب (أربع جوائز):

أ- الشعر
ب - الرواية
ج - الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية
د - تحقيق التراث العربي

ثالثا: في مجال العلوم الأجتماعية والإنسانية (خمس جوائز):

أ- الدراسات التاريخية والآثارية لدولة الكويت
ب - الفلسفة
ج - التربية
د - التاريخ والآثار
هـ - الجغرافيا

الشروط العامة

(١) أن يكون العمل متميزاً في بابه.
(٢) ألا يكون العمل عملا أول للمرشح.
(٣) أن يكون العمل المقدم من إنتاجِ العام ٢٠٠٦ وما يليه.
الجائزة خمسة آلاف دينار كويتي ودرعاً تذكارية وشهادة تقديرية

للاستفسار حول الشروط التفصيلية: ٢٢٤٢٥٧٩٥ أو ٢٢٤١٦٠٠٦، داخلي ٥٥٠ - ٥٥٧
تسلم طلبات الترشح شخصيا إلى قسم جائزة الدولة التشجيعية - إدارة الثقافة والفنون - الدور الرابع - مبنى المجلس للثقافة والفنون والآداب (مطبعة الحكومة سابقا)



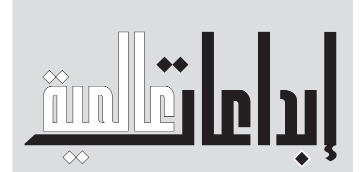
عشيق الصين الشمالية

(رواية)

تأليف: مارغريت دوراس

ترجمة وتقديم: محمد عزيز الحصيني

مراجعة: د.ليلى عثمان فضل



تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
E.Mail:
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٠٠٢
ردمك: ٦-٣٠٢-٠-٩٩٩٠٦

• عشيق الصين الشمالية
(رواية)

العنوان الأصلي:

L’amant de la Chine du nord
by: Margueritte Duras

Éditions gallimard 1991

الطبعة الأولى – الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2010م

إبداعات عالمية - العدد 382

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)

white

المقدمة

الكتابة هي الحياة، هذه هي المعادلة التي جسدتها مارغريت دوراس في جل أعمالها الأدبية. هي كاتبة جعلت من مفهوم «الكتابة السائلة» معيشا يوميا، ومارسته على أفضل وجه. كانت تعتبر الكتابة واجبا يوميا وحياتيا: «لا يوجد واجب بالنسبة إلى الكاتب، هناك الكتابة فقط، التي تدفع برجل أو بامرأة، إلى اتخاذ موقف ما تجاه الواقع».

إن الكاتب، في تصور م. دوراس، لا يختار أن يكون كاتبا، لأن هذا «يحدث في يوم ما، هكذا»، ثم ينتهي الأمر.

لكن، هل الأدب طريقة مثلى تساعد على الحياة؟ جواب دوراس هو النفي، لأن الكتابة، بقدر ما هي طريقة حياة، هي، أيضا، «طريقة موت خاص».

لقد كتبت دوراس ذاتها، وجعلت من حياتها الشخصية والعائلية موضوعا حيا، يتجدد باستمرار. إن الدافع لديها إلى الكتابة هو هذه التفاصيل التي ستظل دوراس ترويها بدربة وحنكة، وبكثير من الشغف، من دون أن تكف عن الاعتراف بأنها تجهل حقيقتها. تقول: «ما هي حقيقتي؟ إن كنت تعرفها فأخبرني بها»... لقد عاشت هذه التفاصيل في كل مرحلة من حياتها. وحين بلغت الثانية والسبعين من العمر، كانت تعتبر هذه التفاصيل كما لو أنها لم تحدث إلا

بالأمس، وأن أحدا لم يكتب بصوتين، وأنها لو لم تكتب ذلك لتحولت إلى مدمنة كحول لا يمكن علاجها.

هكذا تحولت كتابة دوراس إلى تعبير عن الصمت، الصمت الذي يجعلنا نرتكن إلى الزوايا المعتمة، ولا نتحمل الكشف عن خبايانا التي تعكس جوهرنا. «الصياح من دون صخب»، هو ما يميز أعمال دوراس، فمنذ روايتها الأولى «السفهاء»، الصادرة في العام ١٩٤٢، وحتى كتابها الأخير «هذا كل شيء» الذي صدر في العام ١٩٩٥، أي قبل وفاتها بسنة، كان على دوراس أن تصفي حسابها مع حياتها، ومحيطها، وماضيها وطفولتها: «إن المكتوب يأتي مثل الريح، عاريا... ويمر كما لم يمر شيء آخر في الحياة... غيرها هي، الحياة».

منذ العام ١٩٨٠، ومع روايتها «صيف ١٩٨٠»، سيزداد هذا الإصرار على محاولة الإمساك بالحياة التي تمر من دون أن تترك أثرا، الحياة حين تمر، كما تمر، في الوقت الذي تمر فيه. بعد انغمار في السينما والمسرح، دام أكثر من عقد من الزمن.

ستجعلها تجربتها ككاتبة سيناريو، ومسرحية، ومخرجة، تولي أهمية استثنائية للحوار في كل رواياتها. الحوار باعتباره مكانا للكتابة، توظفه كدال، وكأداة لإغلاق الحدود بين الأشكال الكتابية الأخرى: هل نحن داخل رواية، أم مسرحية، أم شريط سينمائي؟

ألـم تنشـر في العام ١٩٧٣ كتاب «إنديا سـونغ» على شـكل «نص مسرحية فيلم»؟ كل هذه الأشكال ستتموقع في منطقة تحول، وتناص، رافضة إخضاع المحكي لسلطة السارد، وجاعلة الشخصيات تتحرر بوساطة الكلام.

مـن هنا جـاء توظيفها للأصـوات، وورطـات التواصل في العلاقـة مع الآخر، لتصنع، عبر الكلام، فضاء يجعل الكتابة مستحيلة. أليست الكتابة «هي، قبل كل شيء، استحالة»؟

فـي الثامـن والعشـرين مـن سـبتمبر مـن العـام ١٩٨٤ سـتصدر مارغريـت دوراس روايتهـا «العشـيق». وفـي ١٢ نوفمبر من العام نفسـه، سـتحصل الروايـة على الغونكور، أرفع الجوائز الأدبية في فرنسـا. مع رواية «العشـيق»، التي بيـع منهـا أكثر مـن ثلاثـة ملايين نسـخة، وترجمـت إلى ثلاثين لغة، سـينفتح النص الدراسـي على عوالم سـردية، تمتزج فيها السـير الذاتية بالتخيلي، والذاكرة بالعواطف، والأحاسـيس بالغرائـز، والحـب بالبغض، والسـكر بالموت، والكذب بالعنف.

أمـا رواية «عشـيق الصـين الشـمالية» الصادرة فـي العام ١٩٩١، فهـي رواية العـود الأبدي، والشـغف الطفولي الدفين فـي ثنايا حيـاة مختلفة. إنها روايـة البكاء بامتيـاز. البكاء رغبة في الخلاص وفي التعبير عن الألم، ألم الحب والضياع، واستحالة تحقق الحلم.

مـع هذه الرواية، تسـتعيد دوراس إحـدى التيمات التي لم تسـتطع الانفلات أو التخلص منهـا، هي تيمة الخوف المتجـذر الذي كان يسـكن طفولتها، الخوف من شـقيقها، الخـوف مـن جنـون الأم الهسـتيرية، التي سـعت، من دون أن تعـي ذلـك، إلى قتـل أبنائها. كما تسـتعيد «حقيقتها»، وطبيعـة العلاقـة بهـذه الأم، التـي هـي مزيـج مـن الحب والحقد، وتكشـف عـن عواطفها تجاه «العشـيق الصيني» الـذي أحبتـه حبـا مسـتحيلا ولا محدودا، «فـي الحب، لا توجـد إجـازة، الحـب يجـب أن نعيشـه بالكامـل، بضجره وتفاصيله، ولا إجازة ممكنة معه».

مع «عشـيق الصين الشـمالية» ستتحول دوراس إلى كاتبة روايـات من جديد، لسـبب واحد هـو: أن حياتها هي الموضوع الوحيد لكتابتها.

«دائما، يظل هناك شيء من الطفولة»، لكن تجربة الحب، حـين تكـون حقيقيـة ومؤلمـة، تظل جرحـا غائـرا لا يندمل. الحـب بين طرفـين من جنسـين مختلفين مع المكاشـفة في الأهـواء والتلاؤم فـي الرغبات... «إنني لا أختلق شـيئا، فأنا عاجزة عن الاختلاق».

هكذا يتداخل الحكي بالرغبة فيجعل الأصوات السـردية تتقاطـع بين الكتابـة الروائية والكتابـة الفيلمية (تعليقات السادرة، الصرخات، الأغاني، الموسيقى... والصمت).

قد تمثل الكتابة الدوراسية، في نهاية الأمر، نصا واحدا تحمله الأصوات التي تنتقل بين الرواية والفيلم مرورا بالحوار المسرحي، كما تمثل الرغبة والشغف اللحمة الجوهرية لهذه الكتابة، أما الحب المستحيل، ومصير الأم التراجيدي، والبحث المهووس عن المال، فتمثل الوسواس الذي يحقق للنص بعده الأسطوري.

ولدت مارغريت دوراس (اسمها الحقيقي مارغريت دوناديو) في العام ١٩١٤ بـ «جيا دينه»، بالهند الصينية (فيتنام حاليا). توفي والدها الذي كان أستاذ رياضيات، خلال رخصة مرضية بفرنسا، وعمرها لم يتجاوز الرابعة. بعد ذلك، ستعاني أمها، التي كانت معلمة ثم مديرة مدرسة، من أجل إعالة ورعاية أبنائها الثلاثة.

تمضي دوراس معظم طفولتها في الهند الصينية، حيث ستجمعها علاقة حب عاصفة برجل صيني ثري، ستسميه في معظم أعمالها بالسيد «جو» و«ليو».

في سن السابعة عشرة ستستقر في فرنسا. وتدرس القانون والعلوم السياسية بالسوربون، لتحصل في العام ١٩٣٥ على شهادتها الجامعية.

من ١٩٣٥ إلى ١٩٤١: ستعمل سكرتيرة. وتلتحق بالمقاومة الفرنسية كعضو نشيط بخلية «روشيليو» التي كان يرأسها فرانسوا ميتيران، الرئيس الفرنسي الراحل.

١٩٣٩ : ستتزوج بروبير أنطيلم.

١٩٤٣ : تنشر روايتها الأولى «السفهاء» باسم مارغريت دوناديو.

١٩٤٤ : تنخرط في الحزب الشيوعي، وتنشر روايتها «الحياة الهادئة».

١٩٤٧ : تنفصل عن روبير أنطيلم. وولادة ابنها جان مع جان موسكولو.

١٩٥٠ : تصدر روايتها «حاجز ضد المحيط الهادئ». وتطرد من الحزب الشيوعي.

١٩٥٢ - ١٩٥٥ : تصدر «بَحَّار جبل طارق»، و«أفراس طاركينيا الصغيرة»، و«أيام كاملة في الأشجار»، و«الحديقة الصغيرة».

١٩٥٧ : تنفصل عن جان موسكولو. وتنخرط في العمل الصحافي بمجلة «فرانس أوبسيرفاتور».

١٩٥٨ - ١٩٥٩ : تصدر «موديراتو كونتابيل»، و«هيروشيما حبيبي».

١٩٦٠ - ١٩٧٠ : تصبح عضوا بلجنة جائزة «ميديسيس» الأدبية، وتستقيل منها بعد ذلك بسنوات قليلة. وتنشر «ظهيرة السيد أنديسماس»، و«افتتان لول. في. ستاينر»، و«نائب القنصل»، و«العشيقة الإنجليزية»، وتشارك في أحداث مايو ١٩٦٨.

١٩٧٠ - ١٩٨٠ : تصدر رواية «الحب»، وتحول رواية «إنديا سونغ» إلى السينما، وتحصل على جائزة «الجمعية

الفرنسية للسينما والفن والبحث» بمهرجان كان. تخرج فيلم «الشاحنة»، وتصدر رواية «الصيف ٨٠».

١٩٨٢: تدخل إلى المستشفى للعلاج من الإدمان، وتصدر «الرجل الأطلسي»، و«مرض الموت».

١٩٨٤: تصدر روايتها «العشيق»، وتحصل على جائزة «الغونكور» الأدبية.

١٩٨٥: تصدر رواية «الألم».

١٩٨٧: تصدر روايتي «إيميلي ل» و«الحياة المادية».

١٩٨٨ - ١٩٨٩: تدخل في غيبوبة بسبب الإدمان.

١٩٩٠: تصدر رواية «مطر الصيف».

١٩٩١: تصدر رواية «عشيق الصين الشمالية».

١٩٩٢: تصدر رواية «يان أندريا ستاينر».

١٩٩٣: تصدر كتاب «أن تكتب».

١٩٩٥: تصدر كتاب «هذا كل شيء»، وهو آخر كتاب تكتبه قبل وفاتها.

في شهر أكتوبر من العام ١٩٨٨، ترقد مارغريت دوراس بمستشفى «لاينيك»، بعد عملية جراحية بسبب نقص في التنفس. لتدخل في غيبوبة (كوما) اصطناعية طويلة الأمد، لم تخرج منها إلا في يونيو من العام ١٩٨٩، بعد أن اعتقد الأطباء أنها ماتت. لكن دوراس لم تمت «بسهولة» كما علقت ساخرة. ستستيقظ، وتلتقي بالمخرج جان - جاك آنو، لتحويل

رواية «العشيق» إلى السينما. وبعد أن أصبحت الرواية فيلما سينمائيا، كرهت الرواية، واعتبرتها «رواية محطات»، لتكب على الكتابة من جديد، وتبدع «عشيق الصين الشمالية».

منذ العام ١٩٩٢، لم تعد مارغريت دوراس تنشر شيئا، ولم تعد تستقبل إلا أناسا قلائل من بينهم ابنها، ويان أندريا رفيقها الذي لازمها في السنين الأخيرة، والذي كتبت عنه في «هذا كل شيء»: «أنا لم أعد شيئا، لقد أصبحت مخيفة تماما، تعال بسرعة، لم يعد لدي ثغر، لم يعد لدي وجه، يان حبيبي في الليل».

١٩٩٦: توافيها المنية بباريس، يوم الأحد ٣ مارس.

محمد عزيز الحصيني

إلى طان

white

تقديم

كان من الممكن أن يحمل الكتاب أحد هذه العناوين: «الحب في الشارع»، أو «رواية العشيق»، أو «العشيق مرة أخرى». وللحسم في ذلك، كان لدينا الخيار بين عنوانين عريضين، وحقيقيين، هما:

«عشيق الصين الشمالية» أو «الصين الشمالية».

علمت أنه توفي منذ سنوات. كان ذلك في مايو ١٩٩٠ قبل سنة من الآن. لم أفكر أبدا في وفاته. قيل أيضا إنه دفن بساديك، وإن البيت الأزرق لايزال هناك، تقطنه عائلته وأبناؤه، وإنه كان محبوبا في ساديك لطيبته وبساطته، وإنه أيضا أصبح شديد التدين في الأيام الأخيرة من حياته.

تخليت عن العمل الذي كنت أقوم به، وكتبت قصة «عشيق الصين الشمالية» والطفلة التي لم توجد بعد في «العشيق». كتبت هذا الكتاب وأنا مغمورة بالسعادة المجنونة لكتابته.

بقيت داخل هذه الرواية لمدة سنة، محاطة بالحب الذي جمع بين الصيني والطفلة.

لم أذهب أبعد من إقلاع سفينة الركاب، أي رحيل الطفلة.

لم أكن أتخيل، بتاتا، أن موت الصيني سيبزغ من جديد. موت جسده، وبشرته، ويديه.

استرجعت، خلال سنة، زمن عبور نهر الميكونغ على عبارة الفين - لونغ.

هذه المرة ومن خلال المحكي، سينبثق، فجأة، في الضوء الخاطف، وجه طان، ووجه الشقيق الأصغر، والطفلة المختلفة.

بقيت داخل القصة، مع هؤلاء الشخوص، ومعهم فقط، أصبحت، من جديد، كاتبة روايات.

مارغريت دوراس

مايو ١٩٩٠

إنه أحد البيوت، وسط ساحة مدرسية. كل الأبواب مشرعة. كما لو أن هناك حفلا، موسيقى فالسات ستراوس وفرانز لوهار، وأيضا رامونا وليالي الصين، تنبعث من النوافذ والأبواب. الماء في كل مكان، في الداخل والخارج.

ينظفون البيت بالماء. يجعلونه يسبح هكذا، مرتين أو ثلاثا في السنة. الخدم وأطفال الجيران جاءوا ليروا ذلك. يساعدون بدفقات كبيرة، ينظفون البلاطات والجدران والطاولات، وهم ينظفون، يرقصون على نغمات الموسيقى الأوروبية، يضحكون ويغنون.

إنه حفل حي، بهيج.

الموسيقى، هي الأم، سيدة فرنسية، تعزف على البيانو في الغرفة المجاورة.

وهناك، بين الراقصين، فتى، شاب، فرنسي، وسيم، يراقص فتاة فرنسية، شبه كبير بينهما. هي، تلك التي لا اسم لها في الكتاب الأول، ولا اسم لها في الكتاب الذي بعده، ولا في هذا الكتاب.

هو، إنه باولو، الشقيق الأصغر الذي تحبه هذه الشقيقة الشابة التي لم تسم.

شاب آخر كان في الحفل، إنه بيير، الشقيق البكر، وقد توارى، يتأمل، على بعد بضعة أمتار من الحفل. لمدة طويلة من الزمن، وهو يتأمل الحفل.

ثم يقوم بذلك: يبعد الخدم الصغار ليهربوا فزعين. ثم يتقدم، يقف أمام الأخ الصغير والأخت.

ثــم يقوم بذلك: يهز الأخ الصغير مــن كتفيه، ويدفع به حتى النافذة المفتوحــة. وبفظاظة، كما لو كان مدفوعا بواجب، يرمي به إلى الخارج ككلب.

ينهض الأخ الصغير، ويهرب، صارخا من دون كلمة.

تتبعــه الأخــت الصغرى، تقفز مــن النافذة وتلحــق به. كان مستلقيا على سياج الساحة وهو يبكي، ويرتعد، ويقول إنه يفضل الموت على هذا... هذا... ماذا؟... لم يعد يعرف... لقد نسي... لم يقل إن ذلك كان بسبب الأخ البكر.

تبــدأ الأم العزف على البيانو من جديد. لكن أطفال الجيران لــم يعودوا... والخدم، بدورهم تركوا البيت الخالي من الأطفال. بالليل... الديكور نفســه... الأم لاتــزال هناك حيث كان «حفل» الظهيرة. المكان منظم. قطع الأثاث في مكانها.

الأم لا تنتظر شيئا. إنها وسط مملكتها، أفراد العائلة موجودون هنا، قبالتها.

الأم لا تمنع حدوث أي شيء. ولن تمنع حدوث أي شيء. إنها تدع ما يجب أن يحصل، ليحصل.

هذا يقع على طول القصة المروية هنا.

إنها أم واهنة العزم.

إنه الأخ البكر، ينظر إلى الأم – يبتسم لها – والأم لا تراه.

إنه كتاب.

إنه فيلم.

إنه الليل.

الصــوت الذي يتكلــم هنا، هو ذلك الصــوت، صوت الكتاب

المكتوب. صوت أعمى. من دون وجه.

فتى.

صامت.

إنه شارع طويل، تضيئه قناديل غاز.

تغطيه الحصباء. ويبدو شارعا عتيقا، مملوءا بالأشجار العملاقة.

هو شارع قديم.

على جانبي الشارع توجد فيلات بيضاء بشرفات محاطة بسياجات ومتنزهات.

إنه موقع ريفي، جنوب الهند - الصينية الفرنسية.

إنه العام ١٩٣٠.

في الحي الفرنسي.

في شارع من الحي الفرنسي.

رائحة الليل والياسمين، الممزوجة بالرائحة الباهتة والناعمة للنهر.

ثمة، أمامنا، شخص يمشي. ليس هو من يتكلم.

إنها فتاة صغيرة، أو طفلة ربما. هكذا تبدو. تمشي بليونة. القدمان حافيتان. ضامرة ربما. الساقان... أجل... إنها طفلة. وهي يافعة الآن.

في نهاية الشارع يهيج ضوء المصابيح الأصفر، هذا الابتهاج، وتلك النداءات، والأغاني، والضحكات. بالفعل، إنه النهر: الميكونغ.

إنها قرية من السفن الشراعية. إنه بداية الدلتا، نهاية النهر.

بالقرب من الطريق، في المتنزه المحاذي لها، نسمع موسيقى حفل راقص، تنبعث من ساحة «الإدارة العامة». إنها أسطوانة منسية من دون شك، تصدح في المتنزه الخالي.

كان الحفل هنا، إذن، وراء السياج الذي يحاذي المتنزه. موسيقى الأسطوانة، هي لرقصة أمريكية وفق الموضة منذ بضعة أشهر.

تعرج الفتاة الصغيرة باتجاه المتنزه.

تذهب لترى مكان الحفل وراء السياج. نتعقبها. تتوقف أمام المتنزه.

تحت ضوء مصباح، ثمة درب أبيض فارغ، يخترق المتنزه.

إنها قادمة من النهر.

لتختفي داخل المسكن.

شرفات الطابق الأول مطفأة، لكن بعد مرورها بالطابق الأرضي، بقليل، تضاء المصابيح داخل المسكن كله.

يظل المتنزه خاليا.

المرأة ذات الفستان الأحمر لا تعود.

تعود الفتاة الصغيرة إلى الطريق، وتختفي بين الأشجار. ثم ها هي تظهر مرة أخرى. تتقدم من جديد نحو النهر.

إنها أمامنا. لا نرى وجهها بوضوح في ضوء الشارع الأصفر. تبدو شابة. هي طفلة ربما من أصل أبيض. ينطفئ ضوء الدرب بدوره. المرأة ذات اللباس الأحمر لم تعد. ويبقى هذا الضوء الواهن داخل المسكن.

بعد انطفاء الضوء في الدرب والمسكن، تتسرب، عبر نغمات البيانو، موسيقى الفالس الميت. موسيقى كتاب نجهله.

تتوقف الفتاة الصغيرة. تصيخ السمع. نراها تصيخ السمع. تدير رأسها باتجاه الموسيقى وتغمض عينيها. النظرة المعمية ثابتة لا تتحرك.

إننا نراها بشكل أفضل. أجل، إنها شابة. طفلة، مرة أخرى. إنها تبكي.

الفتاة الصغيرة لا تحرك ساكنا. الفتاة الصغيرة تبكي.

في الفيلم، لن نذكر اسم هذا الفالس.

هنا، في الكتاب، سنقول إنه الفالس اليائس.

ستواصل الفتاة الصغيرة الاستماع إليه قبل أن ينتهي. الفتاة الصغيرة، في الفيلم، وهنا، في هذا الكتاب، سنسميها الطفلة.

تخرج الطفلة من الصورة. تغادر مجال الكاميرا والحفل. ببطء تمسح الكاميرا ما رأيناه. ثم تدور، وتنطلق في الاتجاه الذي أخذته الطفلة.

يصبح الشارع خاليا من جديد. يختفي نهر الميكونغ. إضاءة.

لا نرى شيئا سوى اختفاء نهر الميكونغ، والشارع الطويل المعتم.

إنها بوابة.

إنها ساحة مدرسية.

إنها الليلة نفسها، والطفلة نفسها.

المدرسة، أرضية الساحة من التربة المطروقة. عارية، ولامعة، ملستها الأقدام الحافية لأطفال الموقع.

إنها مدرسة فرنسية، مكتوب فوق البوابة: «المدرسة الفرنسية للبنات في مدينة فين - لونغ».

تفتح الطفلة البوابة، ثم توصدها.

تجتاز الساحة الخالية. تدخل البيت الوظيفي. لم نعد نراها. نبقى في الساحة الخالية.

تنبعث من الفراغ الذي تتركه الطفلة موسـيقى ثالثة، تتخللها ضحكات مجنونة، وصرخات حادة، إنها متسولة الغانج التي تعبر الموقع كل ليلة، محاولة الوصول إلى البحر، وطريق شـيتاغونج، طريق الأطفال الموتى ومتسـولي آسـيا الذين يسعون إلى العثور على طريق نحو مياه السوند الكثيرة الأسماك.

* * *

غرفة نوم الأم والطفلة.

إنها غرفة نوم على النمط الاستعماري، سيئة الإنارة.

مصبـاح وحيد في السـقف. الأثاث: سـرير حديـدي كبير لشـخصين، شـديد الارتفـاع، ودولاب بمرآة. السـرير من نوع أسرة المستعمرات، مرقط باللون الأسود، ومزين بكرات نحاسية فوق الزوايا الأربع للسـرير كالقفص، السـرير مغطى بكِلَّة حتى الأرض، كِلَّة بيضاء بلون الثلج، من دون وسـادة، بل مساند صلبة من شعر الذيل، لا ملاءة فوقه. أما قوائمه فمبللة، وموضوعة في أوعية الماء والخشـف، تعزلها عن آفة المستعمرات: بعوض الليل الاستوائي.

الأم مستلقية.

ليست نائمة.

لأنها تنتظر طفلتها.

ها هي الطفلـة. إنها عائدة من الخـارج. تجتاز الغرفة. قد

نتعرف على شكلها وفستانها. أجل، إنها هي، تلك التي كانت تسير في اتجاه النهر في الشارع الطويل على طول المتنزه.

ها هي تتوجه نحو الحمام.... نسمع صوت الماء. تعود.

في هذه اللحظة نراها، أجل. نراها بوضوح. إنها الطفلة مرة أخرى، نحيفة، ضامرة الصدر. الشعر طويل؛ أسمر - أشقر، ومجعد، تنتعل قبقابا بلديا من الخشب الخفيف بأربطة جلدية.

عيناها خضراوان، لامعتان، تشوبهما سمرة. يقال إنهما تشبهان عيني والدها المتوفى. أجل، لقد كانت هي، طفلة الشارع الطويل، التي أبكتها موسيقى الفالس. هي أيضا، من كانت تعرف أن المرأة التي كانت تعزف ذلك الفالس، كانت هي نفسها المرأة ذات الفستان الأحمر، التي كانت تعبر الدرب الأبيض، وهي التي كانت تعزف أيضا، وفضلا عن ذلك، فإنها، أي الطفلة، هي الوحيدة في الموقع، التي كانت على علم بهذه الأمور. في الموقع، وما وراء الموقع. هكذا كانت الطفلة. ترتدي القميص القطني الأبيض نفسه، كالذي ترتديه أمها، بحمالتين مجلوبتين، صنعتهما يدا «دو».

تبعد طرفي الكلة. تطويهما بسرعة تحت الفراش، ثم تلج من فتحة الكلة، وتعيد إغلاقها.

الأم ليست نائمة. إنها تجلس بجانب ابنتها وتضفر شعرها لتنام. تقوم بذلك آليا من دون أن تنظر إلى شيء محدد.

وهناك، في البعيد، في القرية القريبة من النهر، لم تخمد الإشاعة إلا مع طلوع النهار، وبصعوبة.

تسأل الطفلة:

– هل رأيت باولو؟

– لقد جاء. تناول الطعام بالمطبخ مع طان، ثم غادر.

تقول أيضا إنها ستذهب لتبحث عنه فيما بعد، وإنها تعرف مكان اختبائه، ولا تكون مطمئنة إلا حين يكون بالخارج، بعيدا عن البيت. وإنها تعرف أنه ينتظرها دائما، حين يكون هاربا، حتى لا يعود وحيدا إلى البيت، أحيانا يكون بيير هناك، في انتظاره لينهال عليه ضربا.

تقول الأم إنها تكون خائفة عليه حين يكون خارج البيت، فثمة الثعابين، والمجانين... وحين يرحل... هكذا ... فجأة، يهرب من دون أن يعرف شيئا. تقول إن هذا يمكن أن يحدث مع هؤلاء الأبناء.

أما الطفلة، فبيير هو مصدر خوفها. تخاف أن يقتل باولو، أن يقتله، تقول، ربما، من دون أن يعلم بأنه يقوم بذلك.

تقول أيضا: ليس صحيحا ما تقولينه. إنك لا تخافين على باولو. إنك لا تخافين إلا على بيير.

لا تهتم الأم بما تقوله ابنتها. تنظر إليها طويلا. ثم فجأة، وبحنان لا صلة له بما دار بينهما قبل لحظات، تستبدل موضوع الحديث:

– عن أي شيء ستكتبين حين ستؤلفين كتبا؟

تصرخ الطفلة:

– عن باولو. عنك. وعن بيير أيضا، لأجعله يموت.

وبفظاظة تستدير نحو أمها، وتشرع في البكاء، تلتصق بها. ثم تصرخ مرة أخرى، بصوت منخفض:

- لكن، لماذا تحبينه هكذا، هو، وليس نحن؟

تكذب الأم:

- أحبكم كلكم؛ أنتم أبنائي الثلاثة، درجة الحب نفسها.

تصرخ الطفلة من جديد:

- هذا غير صحيح، غير صحيـــح، أنت كذابة... أجيبي، ولو مرة واحدة... لماذا تحبينه هكذا؛ هو؛ وليس نحن؟

صمت. ثم تجيب الأم لاهثة:

- لا أعرف لماذا؟

لحظة زمنية طويلة. تضيف:

- لم أعرف أبدا لماذا...

تتمدد الطفلة على جسد أمها، تقبلها وهي تبكي. تضع يدها على فمها لتمنعها من أن تتكلم عن هذا الحب.

تستســـلم الأم للإهانة والتعنيف. هكذا هي دائما، داخل هذه المنطقة الأخرى من الحياة، منطقة التفضيل الأعمى.

معزولة ضائعة، وقد تخلصت من كل حنق.

تقول الطفلة متوسلة:

- إذا لـــم يرحل عن البيت، فســـيقتل باولو يوما. أنت تعرفين ذلك. هذا هو مصدر الخطر.

بخفوت، ومن دون صوت تقريبا، ترد الأم بأنها تعرف ذلك، وبأنها مساء أمس كتبت إلى سايغون تطلب ترحيل ابنها إلى فرنسا.

تنتصـــب الطفلة. تصـــدر صرخة خرســـاء، صرخة خلاص وألم.

- صحيح؟

- أجل.

- هل أنت متأكدة؟

تروي الأم:

- هـــذه المرة أجل. أمس الأول ســـرق مرة أخرى بمحششـــة الأفيـــون. أُدين من جديد، ثم كتبت إلى إدارة الترحيل، حتى إني بعثت بالرسالة، هذه المرة، في الليلة ذاتها.

تحضن الأم الطفلة، تكف الأم عن البكاء، تظل متجمدة.

تبكي الطفلة بصوت خافت:

- هذا مرعب...

تقول الأم: أجل، من دون شك، لكنها لا تعرف شيئا... أجل هذا مرعب بالفعل، لكنها لا تعرف شـــيئا... الأم والطفلة متعانقتان. الأم لا تبكي. إنها ميتة، بفعل الحياة.

تسأل الطفلة: هل يعلم أنه سيرحل.

تنفـــي الأم، تقـــول إن الأصعب، كان هو هـــذا، أن تخبره بأن الأمر قد قُضي.

تداعب الأم شعر ابنتها وتقول:

يجـــب ألا تعاني بســـببه. من الصعب علـــى أم أن تقول هذا، لكنني أقوله برغم كل شيء: إنه لا قيمة له، عليك أن تعلمي ذلك، بيير شخص لا قيمة له حتى يتسبب في تعاستك.

الطفلة صامتة. تواصل الأم:

- مـــا أريد قوله، هو أن بييـــر لا قيمة له حتى نحاول إنقاذه. بيير انتهى... فات الأوان. لقد ضاع...

تصرخ الطفلة وهي تشهق:

- لهذا فأنت تحبينه.

- لا أعـــرف بالضبـــط. أجل، من دون شـــك، مـــن أجل هذا أيضا... ومن أجل هذا أيضا فأنت تبكين.

تضم الأم الطفلة بين ذراعيها:

- لكني أحبكما كثيرا أنتما أيضا، باولو وأنت...

تبتعد الطفلة عـــن الأم، تنظر إليها، لقد تكلمت ببراءة، وكان على الطفلة أن تصرخ في وجهها، تشتمها، تقتلها، لكنها ابتسمت لها فقط.

اســـتمرت الأم في التحدث إلى هذه «الفتـــاة الصغيرة» آخر أبنائهـــا. قالت لها إنها كذبت عليها فيما يتعلق بأســـباب ترحيل بيير... وإن ذلك لم يكن بسبب الأفيون فقط.

تروي الأم(*):

- قبل شـــهر أو شهرين، لم أعد أذكر، كنت في غرفة دو حين أتيتمـــا لتناول العشـــاء، باولو وأنت، تعمـــدت ألا ترياني، يحدث لـــي هذا أحيانا. أنتم لا تعرفون ذلـــك. وحتى أتمكن من رؤيتكم مجتمعـــين، أنتم الثلاثة، أختفي عند دو. ثـــم أتى طان، كالعادة، وضع صحن التيت - كو والأرز، وانصرف.

مد باولو يده إلى الطعام وخدم نفسه. ثم أتى بيير بعد ذلك. تنـــاول باولو النصيب الأكبر من صحن التيت - كو، وتركته يفعل ذلك. حين أتى بيير شعرت بالخوف. لم يجلس بيير إلى الطاولة فـــورا، بل نظر إلى صحنه الفارغ، وإلـــى صحن باولو، ثم انفجر

(*) بالنسبة إلى السينما سيكون لدينا الخيار بين أن نبقي على وجه الأم وهي تروي من دون أن نراها، أو على الطاولة والأطفال موضوع حكي الأم. المؤلفة تفضل الاقتراح الثاني.

ضاحكا. كانت ضحكته جامدة، ومخيفة. قلت في نفسي ستكون هذه ضحكته حين يموت.

ضحك باولو في البداية، ثم قال: من أجل الضحك.

استعاد بيير قطعة اللحم من صحن باولو ووضعها في صحنه، التهمها ككلب، ثم نبح:

- أيها الغبي، تعرف جيدا أن قطع اللحم الكبيرة هي من نصيبي.

- صرخت أنت:

- لماذا هي من نصيبك أنت؟

قال: لأن الأمر هكذا.

ثم ارتفع صراخك أكثر، حتى خفت أن يصل إلى الشارع.

- أتمنى أن تموت.

شد بيير قبضته استعدادا لتحطيم وجه باولو، انخرط باولو في البكاء، وصرخ بيير:

- اخرجا، اخرجا حالا.

وانصرفتما جريا، أنت وباولو.

تعتذر الطفلة لأمها لأنها صرخت في وجهها، ثم تبكيان معا، وهما مستلقيتان على السرير.

تقول الأم:

- هنا بدأت أفهم أن علي أن أحذر من نفسي، وأن باولو كان مهددا بالموت بسببي، لم أكتب إلى سايغون لترحيله إلا أمس، إن بيير، بالنسبة إلي، قاتل أكثر من أي شخص آخر.

صمت، تستدير الأم نحو ابنتها، باكية هذه المرة:

– لـــو لم تكونـــي هنا، لكان باولو ميتا منـــذ زمن. وأنا أعرف ذلك. هذا ما يجعلني أشعر بالرعب أكثر، أعرف ذلك.

فترة صمت طويلة.

تصرخ الطفلة بحنق:

– إنـــك لا تعرفين ذلك، أنا أحب باولو أكثر من أي شـــيء في الدنيا، أكثر منك، أكثر من أي شيء آخر. منذ زمن وباولو يعيش داخل خوفك وخوف بيير، إن باولو أثمن كنز في حياتي.

– أعرف ذلك.

تصرخ الطفلة:

– لا، أنت لا تعرفين شيئا.

تهـــدأ الطفلة. تحضن أمها، وتحدثها بلطف مفاجئ؛ تشـــرح لها:

– لم تعودي تعرفين شيئا. عليك أن تعرفي ذلك. تعتقدين أنك تعرفين، وأنت لا تعرفين شيئا، تعرفين أشياء كثيرة عن بيير، أما بالنسبة إلي وإلى باولو، فأنت لا تعرفين شيئا، هذا ليس خطأك، لأن الأمر هكذا، إنه لا شيء، لا شيء، يجب ألا يؤلمك ذلك.

صمت.

وجه الأم متجلد، مرعوب.

وجه الطفلة أيضا.

كلتاهما، تظل متيبسة من الشعور بالعار.

تخفـــض الأم بصرها، ثم تتذكر، فجـــأة، الفتى الموجود خارج البيت:

– اذهبي للبحث عن باولو، اذهبي بسرعة، أنا خائفة عليه.

ثم تضيف الأم:

- ستعودين غدا إلى الثانوية، وعليك التعود على النوم باكرا. لقد أصبحت كائنا ليليا مثلي.

- لا فرق...

- لا.

* * *

الطفلــة في مدخل البيت. بجانب حجرة الطعام المفضية إلى ساحة المدرسة الواسعة. كل الأبواب مشرعة. ظهرها إلينا، وهي أمام الشرفة والشارع.

تبحث عن الشــقيق الصغير. تتقدم بين الأشجار. تنظر تحت الأجمات. تذوب، فجأة، في ضوء القمر، ثم تظهر من جديد.

نراها في كل أنحاء الساحة. حافية القدمين، صامتة، بمنامة الأطفــال. تختفي في أحد الأقســام الفارغــة. تظهر من جديد وسط الساحة الواسعة، تحت ضوء القمر، نراها، وهي تحدق في شيء أمامها. لا نرى هذا الشيء، إنه باولو. نراها تتقدم نحوه.

إنه الشــقيق الأصغر. كان نائما في الرواق المحاذي للأقسام، خلف جــدار صغير، في ظل القمر. تتوقــف، تتمدد إلى جانبه، تتملاه بمهابة... إنه مســتغرق في النوم. عيناه نصف مغمضتين مثل «هــؤلاء» الأطفال. بالوجه الأملس الســليم لهؤلاء الأطفال «المختلفين».

تقبل الشــعر، والوجه، واليدين الممدودتــين على الصدر، ثم تنادي عليه بصوت هامس: باولو.

إنه نائم.

تنهض، تهمس منادية عليه مرة أخرى: باولو، كنزي. طفلي الصغير.

يستيقظ. ينظر حوله، يتعرف عليها.

تقول:

- تعال لتنام.

ينهض ثم يتبعها.

تصيح طيور الليل.

يتوقف الشقيق الأصغر. يصيخ السمع إلى الطيور. ثم يعاود السير.

تقول له:

- لا تخف ثانية من أي كان. لا من «بيير»، ولا من أي أحد آخر. هل تسمع، أقسم على ذلك.

يقسم الشقيق الأصغر. ثم ينسى، يقول:

- القمر يوقظ الطيور.

يبتعدان... تصبح الساحة خالية من جديد. يضيع أثرهما. يظهران من جديد. من دون كلام، يواصلان المشي في ساحات المدرسة.

ثم تتوقف الطفلة، وتشير إلى السماء. تقول:

- انظر إلى السماء يا باولو.

يتوقف باولو، وينظر إلى السماء. يكرر الكلمات: السماء... الطيور...

نرى السماء من كل جانب من الأرض، عصارة زرقاء تخترقها بعض الإشراقات.

نــرى الطفلــين وهمــا يحدقــان في الســماء. ثــم نراهما منفصلين.

ثم نرى طان آتيا من الشارع. يتوجه نحو الطفلين.

ثم نرى السماء مرة أخرى، زرقاء ترقطها الإشراقات.

ثم نسمع الفالس من دون كلمات. يصفّره طان في لقطة ثابتة للون السماء الأزرق.

حــين كانوا صغارا، كانت الأم تأخذهم أحيانا لرؤية الليل في أثناء الفصل الجاف. كانت تطلب منهم أن ينظروا جيدا إلى هذه الســماء الزرقاء كالنهار، وإلى ضــوء الأرض الممتد حتى حدود البصر.

وأن يصغــوا جيــدا إلى ضوضــاء الليل، ونــداءات الناس، وضحكاتهم، وأغانيهم، وإلى نواح الكلاب المســكون بالموت، وكل الأصوات الآتية من جحيــم العزلة، وجمال الأغاني المعبرة عن هــذه العزلة. يجــب أن نخبر الأطفال بما نخفيــه عنهم عادة، العمــل، الحروب، الفراقــات، الظلم، غيــاب العدالة، الوحدة، الموت... أجل، هــذا الجانب الجهنمي من الحياة الذي لا بديل عنه... يجب أن يعرفه الأطفال، أن ينظروا إليه، مثلما ينظرون إلى الســماء وجمال الليالي. كان أبنــاء الأم يطلبون منها دائما أن تشــرح لهم مــا تعنيه بكل ذلك. وكانــت الأم تجيب أطفالها بأنهــا لا تعرف، وبأنه لا أحد يعرف ذلك، وبأن هذا أيضا تجب معرفتــه: أن نعــرف، قبل كل شــيء، أننا لا نعرف شــيئا، وأن الأمهات اللواتي يقلن لأطفالهن إنهن يعرفن كل شيء، حتى هن، لا يعرفن شيئا.

ثم تذكرهم الأم أيضـــا، بأن هذا البلد، الهند - الصينية، هو وطنهم، لقد ولدوا فيه؛ وفيه التقت هي بوالدهم، الرجل الوحيد الذي أحبته، والرجل الذي لم يتعرفوا عليه، لأنه حين مات كانوا لايزالون صغـــارا، ولايزالون كذلك، بعد هـــذا الموت لم تحدثهم عنه إلا قليلا، حتى لا تكدر صفو طفولتهم. وتذكرهم بأن الزمن أيضا، مضى، وبأن حبها لأطفالها ملأ كل حياتها.

وبكـــت الأم. ثم غنى طان بلغـــة مجهولة تحكي قصة طفولته على حدود ســـيام، حين عثرت عليه الأم، وحملته إلى بنغل(*) مع بقية الأطفال الآخرين لكي تعلمه، فتعلم اللغة الفرنســـية، وتعلم كيف يغتسل، ويأكل جيدا، كل يوم.

الطفلة، أيضا، تســـتعيد الذكريات، تبكي مع طان وهو ينشد هذه الأغنية، أغنية «الطفولة البعيدة»، كما يســـميها، التي تروي كل ما قيل عن موسيقى الفالس اليائس.

إنه النهر.

إنها العَبَّارة فوق الميكونغ. عبَّارة الكتب.

على العبارة توجد شـــاحنة ركاب الأهالي، وســـيارات الليون بولي الطويلة السوداء، وعشاق الصين الشمالية، وهم ينظرون.

تنطلق العبَّارة.

بعد انطلاقها، تخرج الطفلة من الشـــاحنة. تنظر إلى النهر. تنظـــر أيضا إلى الصيني الأنيق الموجود داخل الســـيارة الكبيرة السوداء.

تتجمل بلباس شـــبيه بلباس فتاة الكتب: فســـتان من الحرير

(*) بيت ريفي يُبنى على شاطئ البحر [المترجم].

البلـــدي، أبيض مصفر، وقبعة «طفولة وبـــراءة» رجالية، بحواف منبســـطة من الوبر اللـــدن ذي اللون الوردي، بشـــريط عريض أسود .أما الجوربان فرثان... متهرئان...

يخرج رجل آخر من ســـيارة الليموزين الســـوداء، يشبه رجل الكتاب، صيني آخر من الماندشوري،

لكنـــه يختلف قليلا عن صيني الكتاب. إنه أقوى قليلا، وأقل خوفا منه، وأكثر جرأة ووسامة وصحة. إنه أنسب إلى السينما مـــن رجل الكتاب. وهـــو، أيضا، أقل خجلا، أمـــام الطفلة، من الآخر.

هي: طفلة الكتاب نفسها، صغيرة، نحيفة، وجسورة. إنها أقل جمالا مما تظهر عليه. فقيرة، ابنة فقراء سليلي فقراء، مزارعين، وإسكافيين. الأولى في اللغة الفرنسية، دائما وفي كل مكان، تكره فرنسا، شديدة الحزن على مسقط رأسها وبلد طفولتها. تبصق شـــرائح اللحم الأحمر الغربية، وتهيم بضعاف الرجال، شهوانية، مجنونة قراءة ومشاهدة، حرة.

هو: صيني. طويل القامة. له بشرة صينيي الشمال البيضاء. شـــديد الأناقة، يرتدي بذلة حريريـــة، وحذاء إنجليزيا يميل إلى الأحمر، شـــبيها بتلك الأحذية التي ينتعلها رجال البنوك الشباب بسايغون.

ينظر إليها.

تنظر إليه، يبتســـمان، ثم يدنو منها. يدخن ســـيجارة من نوع «٥٥٥». يقدم لها واحدة بارتعاشة خفيفة في يده:

– هل تدخنين؟

تصدر من الطفلة إشارة نفي.

- اسـمحي لي... مـن غير المتوقع أن توجـدي هنا... أليس كذلك؟

الطفلة لا ترد. لا تبتسـم، تنظر إليه طويلا، بقسوة، ووقاحة. من دون حرج، هـو وصف الأم: «إننا لا ننظر إلى الناس هكذا». بدت كما لو أنها لم تسمع جيدا ما يقوله.

تنظر إلى الثياب، وإلى السيارة.

يفوح منه عطر ماء الكولونيا الأوروبي، المشوب برائحة الأفيون والحرير، ظل الحرير، وظل البشرة.

تنظر إلى كل شـيء، السـائق، السـيارة... ثم تنظر إليه مرة أخرى، هو، الرجل الصيني. في نظراتها تلك الطفولة الفضولية، غير اللائقة، والمندهشة دوما، الجشعة والمباغتة.

ينظر إليها، وهي تنظر إلى كل ما تحمله العبَّارة.

من هنا بدأ فضوله.

تقول الطفلة:

- ما نوع سيارتك؟...

- موريس ليون بولي.

تصدر عن الطفلة إشـارة تعني أنهـا لا تعرفها. ثم تضحك. وتقول:

- لم أسمع بمثل هذا الاسم...

يشاركها الضحك. تسأله:

- من أنت؟

- أقطن بساديك.

– في أي مكان في ساديك؟

– على النهر، في البيت الكبير ذي الشـــرفات، بعيد ســـاديك مباشرة.

تتعرف الطفلة عليه. تقول:

– البيت ذو اللون الأزرق الفاتح، الأزرق الصيني...

– بالضبط: أزرق – الصين الفاتح.

يبتسم. تنظر إليه. يقول:

– لم أرك، من قبل، في ساديك.

– ذلك لأن أمي لم تُعين بساديك إلا قبل سنتين. أما أنا فأقيم في القسم الداخلي بسايغون.

صمت. يقول الصيني:

– هل تشتاقين إلى فين – لونغ؟

– نعم. كانت أجمل ما وجدناه.

يبتسمان.

تسأل:

– وأنت؟

– أنا عدت من باريس. درســـت هناك لمدة ثلاث سنوات. وقد عدت قبل بضعة أشهر.

– ماذا كنت تدرس؟

– ليس شيئا ذا بال. هذا لا أهمية له. وأنت؟

– أستعد لشهادة البكالوريا بثانوية «شاسلو – لوبا». أنا تلميذة بالقسم الداخلي لثانوية «ليوطي».

ثم تضيف:

- ولدت بالهند - الصينية. إخوتي أيضا. كلنا ولدنا هناك.

تنظر إلى النهر. يبدو مشغول البال، لكنه يتحرر من خوفه. يبتسم. ويتكلم. يقول:

- أستطيع أن أقلك إلى سايغون إن أردت ذلك.

لا تتردد. السيارة، وهو بنبرته الساخرة... كل هذا، يشعرها بالسعادة. يبدو ذلك في ابتسامة العينين. ستحكي لشقيقها باولو عن سيارة ليون بولي... وسيفهم.

- أفضل هذا.

بالصينية، يطلب الصيني من سائقه أن يجلب حقيبة الطفلة من الشاحنة ويضعها في الليون بولي.

صعدت السيارات مدرج العبَّارة. وهي الآن على حافة النهر ليلحق بها الراكبون مشيا. يتوقفان أمام الباعة المتجولين. تنظر الطفلة إلى الحلويات المعروضة، المصنوعة من الذرة المخفوقة في حليب الكوكو، والمحلاة بالسكر وقد لفت في أوراق شجر الموز.

يقدم لها الصيني واحدة. تتناولها، تلتهمها من دون أن تشكره.

- ما مصدره؟

- ما مصدر هذا الضمور الذي يجعلها كالخلاسية. لكن بعينين أكثر لمعانا.

ينظر إليها وهي تلتهم الحلوى. في هذه اللحظة ومن دون تكلف يخاطبها:

- هل ترغبين في قطعة أخرى؟

تنظر إليه وهو يضحك، ثم تقول: لا.

العبارة الثانية تغادر الضفة الأخرى، وتقترب.

رؤية العبارة المتقدمة تسحر الطفلة، فجأة، فتنسى الصيني. فوق العبَّارة المتقدمة تتعرف على سيارة لانسيا السوداء المكشوفة. سيارة امرأة الفالس الليلي، ذات الفستان الأحمر.

يسأل الصيني من تكون؟

تتردد الطفلة قبل أن ترد على الصيني. إنها تتلفظ بالكلمات فيما يشبه التعزيم السري.

تقول:

- إنها السيدة ستريتر. (آن - ماري ستريتر)، امرأة الإدارة العامة. في فين - لونغ يدعونها أ. م. س.

تبتسم ثم تعتذر عما قالته.

يحار الصيني أمام ما تقوله الطفلة. يقول إنه سمع بهذه المرأة في ساديك، لكنه لا يعرف أي شيء عنها، مع ذلك يتذكر، فجأة، هذا الاسم...

تقول الطفلة:

- لديها كثير من العشاق، هذا ما تتذكره أنت...

- أظن ذلك، أجل.

- أحد عشاقها، شاب كانت ستقتل بسببه... لا أعرف...

- إنها جميلة... كنت أظنها أصغر، يقولون إنها مجنونة بعض الشيء... أليس كذلك؟

لا رأي لدى الطفلة عن الجنون. تقول:

- لا أعرف شيئًا عن الجنون.

تنطلق السيارة في الطريق إلى سايغون. ينظر إليها طويلا.

لاتـزال الكلفـة تختلط مـع رفـع الكلفة غيـر المتعمد لدى الصيني.

– يوفرون لك دائما مكانا على العبَّارة، أليس كذلك؟

توافق بإشارة منها.

– هل ترفضين أحيانا؟

تقول نعم بإشارة من رأسها.

– حـين يكـون هناك أطفـال صغـار... إنهم يبكـون طوال الوقت...

يتبادلان الضحكات.

بعد ذلك، ينظران خارج السيارة. هو ينظر إلى مظاهر البؤس، جوارب الساتان الأسود الرثة، الحقيبة المتهرئة والقبعة الرجالية. ضحكتها تجعله يضحك.

– هل تذهبين إلى المدرسة بهذه الجوارب؟

تنظر الطفلة الصغيرة إلى جوربيها كما لو أنها للمرة الأولى. ثم تضحك مثله. وتقول: نعم...

– وبهذه القبعة أيضا؟

– أجـل. تنتابها نوبة الضحك من جديـد. يضحك معها في الوقت نفسه.

– إنها تناسـبك... هذه القبعة الرائعة، كما لو كانت مصنوعة خصيصا من أجلك.

تسأل ضاحكة:

– والجوربان...؟

- يضحك الصيني أكثر ويقول:
- بالنسبة إلى الجوربين، لا رأي لي.

يضحكان بجنون وهما ينظران إلى الجوربين الأسودين.

في هذه اللحظة، وبعد نوبة الضحك، انقلبت القصة.

يتوقفان عن الضحك. ينظران خارج السيارة، حيث مزارع الأرز وفراغ السماء. الحرارة الشاحبة؛ والشمس الملثمة في كل مكان. الطرقات الصغيرة الخاصة بالعربات التي تجرها الجواميس، يقودها الأطفال.

معا، داخل العتمة الخفيفة للسيارة.

إن هذا التوقف عن الحركة وعن الكلام، والنظر المصطنع إلى الرتابة الخارجية، والطريق، والضوء، ومزارع الأرز الممتدة على مد البصر... هذا ما جعل هذه القصة تصمت شيئا فشيئا.

لم يعد الصيني يخاطب الطفلة. إنه يتركها ليأخذه شرود السفر. ينظر إلى الخارج. أما هي فتنتظر إلى اليد الموضوعة فوق مسند المقعد الخلفي.

لقد نسي هذه اليد. زمن يمر. وها هي، من دون أن تعلم ذلك، تمسك بها بغتة. تنظر إليها. تمسك بها مثل شيء لم يسبق أن رأته عن قرب من قبل:

يد صينية، لرجل صيني. يد نحيفة، تلتوي باتجاه الأظافر، كما لو سبق لها أن أصيبت بكسر أو بعاهة. إن لها أناقة يد تساعد طائرا ميتا.

يا للبنصر المرصعة بماسة تتربع عليه.

هذا الخاتم كبير جدا، ثقيل جدا، ثقيل جدا بالنسبة إلى

بنصر هذه اليد. هذه اليد- هي ليست متأكدة من ذلك - يجب أن تكون جميلة. إنها أكثر قتامة من الذراع.

لا تنظر الطفلة إلى الساعة القريبة من اليد، ولا إلى الخاتم. إنها منذهلة باليد فقط. تلمسها لترى. اليد نائمة لا تتحرك. ثم، تنحني ببطء على اليد، تتنشقها. تنظر إليها.

تنظر إلى اليد العارية. ثم تتوقف فجأة عن ذلك. تشيح بنظرها.

لا تعرف هل هو نائم أم لا. تترك اليد... لا، إنه ليس نائما، هذا ما يبدو. إنها لا تعرف. بلطف، تقلب اليد، تنظر إلى الراحة، تلمس حرير البشرة المكسو بنداوة طرية، ثم تضع الشيء في مكانه، كما كان، على المسند وتصفه... تصف اليد الطيعة.

لا يظهر على الصيني ما يدل على أنه مستيقظ. ربما يكون نائما.

تعود الطفلة إلى النظر خارج السيارة. يمتد بصرها نحو مزارع الأرز. ثم نحو الصيني. الحرارة خانقة. كما لو أنها حملت معها اليد في نومها واحتفظت بها.

تترك اليد بعيدة عنها. ولا تنظر إليها.

تنام.

تبدو نائمة.

هي، على العكس، تعرف ذلك، أما نحن فلا نعرف.

هل الصيني نائم. لن تعرف هي ذلك أبدا. ولم يسبق لها أن عرفت أبدا.

حين استيقظت، نظر إليها. لقد راقبها وهي نائمة.

لا يتكلمان عن اليد. كما لو لم يحدث شيء أبدا. يقول:

- أنت في أي مستوى دراسي؟

- في قسم البكالوريا.

- كم سنك؟

تتردد الطفلة ثم تقول ستة عشر عاما.

يتشكك الصيني:

- تبدين أصغر من هذه السن.

- كنت دائما صغيرة، وسأظل صغيرة طيلة حياتي.

ينظر إليها طويلا. هي لا تنظر إليه. يسأل:

- هل تكذبين أحيانا...

- لا.

- مستحيل. ماذا تفعلين حتى لا تكذبي؟

- لا أقول شيئا.

يضحك. تقول:

- الكذب يخيفني. لا أستطيع منع ذهني منه، كالموت، إنهما متشابهان.

ثم تضيف مؤكدة:

- وأنت، ألا تكذب؟

ينظر إليها. يبحث عن الجواب. يقول مندهشا:

- صحيح. هذا غريب...

- ألا تعرف؟

- لا لقد نسيت، أو ربما لم أعرف أبدا.

تنظر إليه. تصدقه. تقول:

- ماذا تفعل حتى لا تكذب...

- لا شيء. ليس لدي، في حياتي، ما يدفعني إلى الكذب، من دون شك... لا أعرف.

ينظر إليها. يبتسم لها.

تقول:

- هل ستحكي ذلك لوالدتك؟

- ماذا؟

تتردد، تقول:

- ما حدث لنا.

ينظر أحدهما إلى الآخر. إنه يفهم... يقول:

- أجل. سنتحدث الليل كله، إنها تهوى ذلك، أن تُحكَى لها أشياء غير متوقعة كهذه. أليس كذلك؟

- نعم. أو بطريقة أخرى.

ينظر إليها ويقول:

- وأنت هل ستخبرين أمك بهذا؟

- أبدا، ثم تضحك.

يبتسم الصيني للطفلة. يقول:

- لا شيء، أبدا؟

- لا شيء، أبدا.

تتناول يده وتقبلها.

بعينين مغمضتين ينظر إليها.

تقول:

- لقد أخطأت. لن تحكي شيئا لوالدتك.

بلطف، ورقة، تبتسم. ثم تنظر إليه.

يقول:

- بخلافــك أنت، عمري ســبعة وعشــرون عامــا. من دون مهنة...

- وصيني فوق ذلك...

- فوق ذلك...

- ينظــر إليها ويقول: كم أنت رائعة... هل قال لك أحد ذلك من قبل؟

تبتسم.

- لا

- وجميلة؟ هل قيل لك إنك جميلة؟

لا. لــم يقل لها أحد ذلــك. نعم، لقد قيل لهــا إنها صغيرة، وليست جميلة.

تقول:

- لا. لم يقل لي ذلك أحد بعد.

ينظر إليها ويقول:

- هل يروقك أن يقال لك ذلك؟

- أجل.

يضحك الصيني بشكل مغاير وتضحك معه.

- لم يقل لك أحد شيئا إذن...

- لا شيء.

- وأنك مرغوبة. مســتحيل. ألــم يقل لك ذلك. ربما بطريقة أخرى؟

لا تضحك الطفلة بشكل مماثل:

- بلى... قال لي ذلك بعض الأشـقياء... لكنه لا شيء، كانوا يتهكمون. كانوا خلاسيين بالخصوص، وليسوا فرنسيين.

يتوقف الصيني عن الضحك. ويسألها:

- والصينيون؟

تبتسم الطفلة. تقول مندهشة:

- إطلاقا.

- ولا صيني واحد... هل هذا صحيح...

صمت.

يبتسم الصيني، فجأة، ابتسامة طفولية.

- هل تروقك الدروس؟

تفكر، وتقول إنها لا تعرف جيدا، هل يروقها ذلك أم لا، أجل، ربما، يروقها ذلك.

يقـول إنه كان يرغب في الالتحاق بجامعة الآداب ببكين، وإن والدتـه كانت موافقة على ذلك، ووالده هو الذي لم يكن موافقا. على أبناء جيله تعلم اللغتين الفرنسـية والإنجليزية- الأمريكية. لقد نسـي أن يقول لها إنه سافر أيضا إلى أمريكا ومكث هناك لمدة سنة، من أجل هذا بالضبط.

- من أجل أن تعمل ماذا في المستقبل...

- لأشـتغل في البنك - يبتسـم - مثل جميع أبناء عائلتي من الرجال منذ مائة سنة.

تقول إن البيت الأبيض هو الأجمل في فان - لونغ وسـاديك، ومن المرجح أن يكون والده مليونيرا.

- يضحــك، يقول إن الأبناء، في الصــين، لا يعرفون أبدا كم تبلغ ثروة آبائهم. نســي أن يقول لها إنه يجري بعض التدريبات، كل سنة، في بنوك بكين الكبرى. يخبرها بذلك.

تقول:

- حتى بماندشوري...

لا ببكين. يقول إن والده لا يعتبر ماندشوري غنية بما يناسب الثروة الحالية للعائلة.

يجتازان قرى الأرز، والأطفال والكلاب. الأطفال يلعبون على الطريق، تحرسهم الكلاب، هؤلاء الصُّفر والهزيلون أبناء البادية، هؤلاء حين تمر الســيارة، نــرى الآباء ينهضون ليــروا هل كلهم هناك، الأطفال والكلاب.

بعد عبــور القرية تنام من جديد. دائمــا ينام المرء في طرق كامو بين مزارع الأرز والسماء حين يكون هناك سائق.

تفتح عينيها. تغلقهما من جديد. يتوقفان عن الكلام. تستسلم لذلك. يقول:

- أغمضي عينيك.

تغمض عينيها كما طلب منها.

يداعب بيده وجه الطفلة، شفتيها، عينيها المغمضتين.

تستسلم للنوم. يعرف أنها لا تنام، يفضل ذلك.

بصــوت خفيــض، وببــطء شــديد، يتلفــظ بجملــة طويلة بالصينية.

تســأله وهي مغمضة العينين ماذا قال. يقول إن الأمر يتعلق بجسدها...

من المستحيل أن يفسر لها معنى ذلك... لأول مرة يحدث له هذا...

تتوقف اليد بغتة. تفتح عينيها وتغمضهما. تواصل اليد. اليد ناعمة. يغمض بدوره عينيه حين يلامس عينيها، وشفتيها. تترك اليد الوجه، وتلامس الجسد. تتوقف أحيانا ثم تنسحب.

ينظر إليها. يلتفت، وينظر إلى الخارج. بنعومة مماثلة لنعومة يده يسأل عن عمرها الحقيقي.

تتردد. ثم تقول معتذرة:

- إنني لازلت صغيرة.

- كم سنك؟

تجيب بالطريقة نفسها التي يتكلم بها الصينيون:

- ستة عشر عاما.

- لا - يبتسم - هذا ليس صحيحا.

- خمسة عشر عاما... خمسة عشر عاما ونصف... هل هذا مناسب؟

يضحك.

- هذا مناسب.

الصمت.

- ماذا تريدين؟

الطفلة لا تجيب. لم تفهم، ربما.

لا يعيد الصيني طرح السؤال. يقول:

- الحب... ألم تمارسيه من قبل؟

الطفلــة لا تجيــب. تبحث عن جواب. لا تعــرف الإجابة عن هذا...

يلتفت إليها. يرى أن صمتها يقول شيئا، شيئا ممنوعا، لم يقل بعد. يقول:

- أنا أعتذر...

ينظران إلى الخارج.

ينظران إلى محيط مزارع الأرز بالكوشنشــين، وإلى الســهل المائــي الذي تخترقه طرقــات صغيرة عموديــة بيضاء لعربات الأطفال اليدوية. الحرارة الجهنمية ســاكنة وهائلة، على مرمى البصر، ذلك الانبساط الناعم للدلتا. بعد ذلك ستتحدث الطفلة عن بلد طفولة ملتبس، وعن أراضي الفلاندر الاستوائية المتحررة، بالكاد، من مياه البحر.

يجتازان الأراضي الشاسعة من دون كلام.

بعد ذلك، ستتولى هي الحكي: بلد الهند الصينية هذا، كانت له التربة البحرية نفسها لملايين السنين، قبل أن تكون هناك حياة على الأرض، ليستمر الفلاحون، مثلما كان يفعل الإنسان القديم، في الاســتيلاء على تربة البحر في المنحدرات الأرضية، وتركها ســنوات طويلة، بغية تخليصها من الملح بواســطة مياه الأمطار، وتحويلها إلى حقول أرز يسيطر عليها البعض فيما بعد. تقول:

- لقــد ولدت هنا، في الجنوب، أخــواي أيضا. وقد روت لنا أمنا تاريخ البلد.

تغفو الطفلة. يخبرها الصيني، بعد أن تستيقظ، بأن أ. م. س. تجاوزتهما بالســيارة، وبأنها هي التي كانت تقود السيارة، وبأن

السائق كان بجوارها.

تقول الطفلة إنها هي التي تقود السيارة بنفسها دائما. تتردد، ثم تقول:

- ستعيش قصصا مع هؤلاء السائقين أيضا، كما تفعل مع أمراء لاووس والكامبودج حين يزورون كوشنشين.

- وتصدقين ذلك؟

تتردد مرة أخرى. ثم تحكي:

- أجل. لقد ذهبت مرة مع شقيقي الصغير، رأته في الموقع ذات مساء، وقد دعته للعب كرة المضرب. ذهب إلى هناك. بعدها، ذهبا إلى المسبح في المتنزه حيث يوجد بنغل وحمامات، وقاعات لممارسة الرياضة، وحيث المكان يكون خاليا كل الوقت تقريبا.

يقول الصيني:

- قد يكون شقيقك الصغير ملكا أيضا.

تبتسم الطفلة ولا تجيب. تكتشف أن هذا صحيح، أن هذا الشقيق الصغير أمير حقا، إنه سجين اختلافه عن الآخرين، وحيد في قصر عزلته هذا، بعيد، وحيد، يولد من جديد، مع إطلالة كل يوم.

ينظر إليها الصيني:

- أنت تبكين...

- إن ما قلته عن باولو صحيح تماما...

يخفض صوته أكثر ويسأل مرة أخرى:

- هو الذي قال لك ذلك؟

- لا . هو لا يقول شـيئا، لا شـيء تقريبا، لكنني أعرف كل ما سيقوله إن تكلم.

تتذكر، تضحك باكية:

- بعـد ذلك، لم يعد يريد الذهاب إلى لعب كرة المضرب مع أ . م. س. أصبح يخاف...

- من أي شيء...؟

- لا أعرف... - تكتشف ذلك - صحيح... لا أحد يعرف من أي شيء يخاف. لا يمكننا التكهن بذلك.

- ماذا يروقك في هذه المرأة...

تبحث. لم تطرح على نفسها أبدا السؤال. تقول:

- أظنها القصة.

يجتـازان منطقة مختلفة عن السـابق. قـرى كثيرة، وطرق أفضل. تسير السيارة ببطء شديد.

يقول:

- سنصل إلى شولين، هل تحبين سايغون أم شولين؟

تبتسم:

- ... لا أعرف إلا المواقع... أما أنت فتعرف؟

أجل، أحب شـولين، أحب الصين، شـولين هي أيضا الصين. في نيويورك وفي سان فرانسيسكو، الأمر مختلف.

يصمتان. بعد أن تكلم مع سـائقه يقول للطفلة، إن السـائق يعرف أين تقع داخلية ليوطي.

ينظران إلى الخارج وقد وصلا إلى المدينة.

وهما علـى أهبة أن ينفصلا، تتذكر كيـف كان الأمر صعبا،

وقاســيا ... أن يتكلما. فبقدر ما كانت الكلمــات مفقودة، كانت الرغبة قوية. لم ينظر أحدهما إلى الآخر أبدا.

تجنبا أيديهما وعيونهما. كان هو من فرض هذا الصمت. لقد قالت إن صمته هو وحده، والكلمات التي يتجنبها هذا الصمت... حتى علامات الوقف والشــرود، وهذا اللعب أيضا، طفولة هذا اللعب ودموعه، كل هذا يدفعها إلى أن تقول إن الأمر يتعلق بشيء اسمه: الحب.

تواصل الســيارة الســير لمدة غير قصيرة، من دون كلام. تعرف الطفلة أنه لن يقول شيئا. هو أيضا يعرف أنها لن تقول شيئا.

القصة موجودة والتردد موجود مسبقا، لا يمكننا تجنبه.

قصة حب، حب يتجدد دائما، لن ينسى أبدا.

تتوقف الســيارة الســوداء قبالة المدرســة الداخلية. يحمل السائق حقيبة الطفلة حتى بابها.

تنزل الطفلة من الســيارة، تســير ببطء، منقادة، نحو الباب نفسه. الصيني لا ينظر إليها.

لــم يلتفت أي منهما نحو الآخر، أو ينظر إليه، يجهل أحدهما الآخر.

إنها ساحة مدرسة ليوطي الداخلية.

ضوء شاحب. إنه المساء. رؤوس الأشجار غطاها الغسق.

ضــوء ضعيف يضيء الســاحة، ترســله مجموعــة مصابيح حديدية خضراء وبيضاء.

هنــاك فتيات، نحو خمســين فتاة. يجلســن على مقاعد في

الحديقة، وعلى درجات ســلالم الممــرات الدائرية. مثنى مثنى، يثرثرن، بضحكات عالية، حول كل شيء، وعن أي شيء.

هنـــاك تلك التي تجلس على أحــد المقاعد، ممددة، إنها تلك المسماة هنا، وفي الكتب الأخرى باسمها الحقيقي، ذات الجمال الخارق التي ترغب في أن تكون دميمة، ذات الاســم الســماوي، هيلين لاكونيل، حب الطفلة الآخر، الذي لم تنسه أبدا.

تنظر إليها، ثم، وببطء، تداعب وجهها.

تنهض هيلين لاكولين من نومها، تبتسمان.

تقول هيلين لاكولين إنها ستروي لها عن حدث مرعب وقع في القسم الداخلي، تقول:

- انتظرتــك مــن أجــل هذا، ثم نمــت، وصلت قبــل الوقت المعتاد.

- التقيت شخصا على العبارة، كان وحده، وقد وفر لي مكانا في سيارته.

- شخص أبيض؟

- لا، إنه صيني.

- أحيانا يكونون لطفاء هؤلاء الصينيون.

- خصوصا الشماليين. وقد كان واحدا منهم.

تتبادلان النظرات.

- لم تذهبي إلى دالاط؟

- لا لم يســتطع والداي زيارتي. لم يخبراني بالسبب. لكنني لم أشعر بالضجر.

تنظر الطفلة إليها بلطف، تندهش بغتة، حين تلحظ الدائرتين

السوداوين تحت العينين، ووجه هيلين الذي تعلوه الصفرة.

تسألها:

- ألست مريضة؟

- لا، لكنني أشعر بالتعب طوال الوقت... أو ربما هي فترة التأقلم بعد دالاط والتي مازالت مستمرة.

تحاول الطفلة ألا تبالغ في انشغالها، لكنها لم تستطع، ولن تستطيع ذلك، ليدوم القلق حتى افتراقهما(*).

- لست مضطرة لأن تحكي لي شيئا...

هيلين لاكولين تحكي للتو ودفعة واحدة ما وقع في داخلية ليوطي.

- تصوري، لقد ضبطت الحارسات إحدى الفتيات مع أحد الأشخاص. لم تثر انتباه أحد في أول الأمر. تعرفين من هي: إنها أليس... الخلاسية...

صمت.

- أليس... مع من تفعل ذلك؟

- مع أي شخص... من المارة، ومع بعض الرجال الذين يتوقفون بسياراتهم، إنها ترافقهم أيضا. تذهب معهم إلى حفرة وراء عنبر النوم... ودائما في المكان نفسه.

صمت.

- هل رأيتهما...

(*) ماتت هيلين لاكولين بالسل، بمدينة بو، التي عادت إليها عائلتها، بعد عشر سنوات من مغادرتها للقسم الداخلي ليوطي. كان عمرها سبعة وعشرين عاما حين عادت من الهند الصينية بعد أن تزوجت وأنجبت طفلين.

ظلت دوما جميلة وفق خالاتها اللواتي حادثنني بعد صدور رواية «العشيق».

تقول هيلين لاكولين كاذبة:

- لا، قالت لي الفتيات الأخريات. ليس ضروريا رؤية ذلك.

تسأل الطفلة عما تقوله أليس بصدد ذلك.

- تقول إن ذلك يعجبهــا، يعجبها كثيرا... وإن هؤلاء الرجال لا تعرفهم، ولا تراهم تقريبا... وهذا هو ما يجعلها... كيف أعبر عن ذلك...

تتردد الطفلة، تتلفظ بالكلمة...

تقول: تستمتع.

تقول هيلين: بالضبط.

تتبادلان النظر وتضحكان فرحتين بسعادة اللقاء.

تقول هيلين:

- تقــول والدتي إنه لا يجب التلفظ بهذه الكلمة، حتى إن كنا نفهــم معناها. إنها كلمة ســاقطة، ما هي الكلمة التي يتلفظ بها أخوك الأصغر؟

- لا كلمة. أخي الأصغر لا يقول شيئا. يعرف أن هذا موجود، أترين، أول مرة حصل لنا ذاك... شعرنا بالخوف، واعتقدنا أننا ســنموت. لكن أخي عليه أن يعتقد أن الكلمــة مختفية. وأنه لا توجد كلمة للتعبير عن الأشياء التي لا نراها.

- حدثيني أكثر عن أخيك الأصغر.

- القصة نفسها دائما...؟

- أجــل، إنها ليســت القصة نفســها دائما، أنــت لا تعرفين ذلك.

تبكــي الطفلة. تبكي معها هِيلِــين لاكونيل. دائما تبكيان معا،

من دون أن تعرفا لماذا، من الدهشة، والحب، والطفولة والغربة.

تقول هِيلِين:

- أعرف أنك كنت مجنونة لكن ليس إلى هذا الحد.

- لماذا أنا مجنونة؟

تتوقف الطفلة عن الحديث، ثم تقول مرة أخرى:

- ثم إنني متأكدة أن باولو سيعثر على نساء أخريات بفان - لونغ، وسايغون، وحتى البيضاوات، في السينما، في الشوارع وعلى الخصوص في عبَّارة ساديك، بطبيعة الحال.

تضحكان.

تسأل هيلين الطفلة عن طان هل فعلت الشيء نفسه معه أم لا.

تقول الطفلة:

- لم يرغب أبدا. طلبت منه ذلك مرات عديدة، لكنه رفض.

تنخرط هيلين في البكاء. ثم تقول:

- سترحلين إلى فرنسا وتتركينني وحيدة. أعتقد أن والديَّ لم يعودا يرغبان في بدَالاط. إنهما لا يحبانني.

صمت. ثم تنسى هيلين. وتستمر في الكلام عن أَلِيسْ.

تتكلم بصوت منخفض. تقول:

- لم أقل لك كل شيء... لكن أَلِيس تؤدي الثمن غاليا جدا...

إنها تقوم بذلك لتشتري بيتا. إنها يتيمة الأبوين لا أحد لها. تقول إنها في حاجة إلى بيت فقط، ولو صغير، يؤويها.

دائما، تعرف الطفلة ما تقوله هيلين. تقول:

– أصـــدق مـــا تقولينه، ولكن قد لا يكـــون الأمر متعلقا فقط بالبيـــت حتى تجعل الرجال يؤدون ويعودون، لأن هذا يســـعدهم أيضا . كم تتقاضى عن ذلك؟

– عشرة بيسترات عن المرة الواحدة، وفي الأمسية نفسها .

– عشرة بيسترات. لا ضير في ذلك، أليس كذلك؟

– هذا ما أراه... لكنني لا أعرف شيئا عن الأثمنة. أما أليس فبالعكس تعرف حتى أثمنة البيضاوات بشارع كاتينات.

تغـــرورق عينا الطفلـــة بالدمـــوع. تحضنها هيلـــين لاكولين صارخة:

– ماذا دهاك؟... هل هذا بسبب ما قلته؟...

تبتســـم الطفلة لهيلين. تقول إنه لا شيء، وإن الكلام عن المال يذكرها بأمور في حياتها .

تقبل إحداهما الأخرى. تبقيـــان كذلك محتضنتين إحداهما الأخرى بصمت وحب. ثم تشرع هيلين في الكلام مع الطفلة من جديد .

تقول:

هناك شـــيء آخـــر أود أن أحدثك عنه. هو أننـــي أيضا مثل أليـــس.إذا كانت تروقها هـــذه الحياة، أنا أيضا ســـتروقني، أنا متأكـــدة. أفضل أيضا أن أقوم بـــدور... على أن أعالج المصابين بالجذام...

تضحك الطفلة:

– ماذا ستروين أيضا؟

– لكـــن هنا، الـــكل يعرف ذلـــك... إلا أنت، مـــاذا تعتقدين؟

سـيجعلوننا نتلقى ما يسـمى الدروس، لنجد عملا بعد الخروج من القسـم الداخلي، هـذا ليس صحيحا، إنهـم يحتفظون بنا في القسـم الداخلي ليرسـلونا بعد ذلك إلى المحاجر الصحية لمعالجة المجذومـين، والمصابين بالكوليرا، لأنهـم لا يجدون من يقوم بذلك...

تقهقه الطفلة:

- هل تصدقين بالفعل هذه القصة؟

- أصدقها بكل تأكيد.

- تصدقين الأسوأ دائما، أليس كذلك.

- دائما.

تضحكان معا، هذا لا يمنع هيلين لاكولين من أن تشكك فيما ترويه أليس.

تسـأل الطفلة هيلين لاكولين عما تحكيه أليس أيضا حول هـذا الموضوع، وتقول هيلين إن أليـس تجد هذا طبيعيا جدا. فليس هناك رجلان متشـابهان. تقول؛ في أي مكان وبالنسبة إلـى الـكل. وإن هناك رجالا رائعين جـدا. هناك أيضا رجال يخافون أن يفعلوا ذلك، لكن ما يروق أليس على الخصوص، هو هؤلاء الذين يخاطبونها كما لو كانوا يخاطبون نسـاء أخريات، ينادونهن بأسـمائهن، ويقولون لهن أشـياء حتى بلغات أجنبية أيضـا. هناك من يتحدثون عن نسـائهم وهم كثر، وهناك من يشـتمونها. وآخـرون يقولون إنهم لم يحبـوا أحدا في الحياة سواها.

تضحك الصديقتان. وتسأل الطفلة:

- هل تخاف أليس أحيانا؟

- مم ستخاف؟...

- من مجرم... أو مجنون... لا نعرف، من قبل...

- قالت لي ربما في هذا الحي، لا يعرف المرء ما سيحدث. أليس كذلك؟

- ربما... البيض هم من يقول ذلك، وهم لا يأتون بتاتا إلى هنا، إذن...

تنظر هيلين لاكولين إلى الطفلة طويلا، ثم تسأل:

- وأنت، هل أخافك الصيني؟

- هكذا... قليلا... ولكن الخوف من أن أحبه ربما. لا أريد أن أحب إلا باولو؛ وحتى الموت.

- أعرف... إنه شيء شبيه بذلك...

هيلين لاكولين تبكي. تضمها الطفلة إلى حضنها وتقول لها كلمات حب. ثم تصبح هيلين سعيدة وتقول للطفلة إنها مجنونة أن تقول لها أشياء مماثلة. لا تذكر ما هي...

لم تعد الطفلة تعرف ما تقول لهيلين. يجتاح الخوف هيلين بغتة. خوف رهيب من إخفاء الطبيعة الحقيقية لهذا الشغف، شغف الواحدة بالأخرى، والذي يجعلهما وحيدتين وهما معا في أي مكان وحيثما وجدتا.

إنها طريق المدرسة الثانوية. إنها السابعة والنصف، إنه الصباح بسايغون. إنها الطراوة الباهرة للشوارع بعد عبور المرشات البلدية، ساعة الياسمين الذي يغمر المدينة برائحته القوية. «رائحة مقززة»، يقول بعض البيض في بداية إقامتهم؛

ليتحسروا، فيما بعد، على ذلك، بُعَيْدَ رحيلهم من المستعمرة.

الطفلـــة قادمة من مدرســـة ليوطي الداخليـــة، متوجهة إلى المدرسة الثانوية. في هذه الساعة، يكون شارع ليوطي خاليا من المارة تقريبا.

الطفلـــة هي الوحيدة من المدرســـة الداخلية التي تدرس في السلك الثانوي بثانوية سايغون، والتي تمر من هنا.

إنها بداية القصة.

الطفلة لا تعلم ذلك.

ثم، وأمامها، بغتة، على طول الرصيف، على يسارها، متوقفة هناك، القصة، وسيارة العبَّارة، طويلة جدا وسوداء جدا، وجميلة جدا، وثمينة جدا أيضا، وكبيرة جدا. مثل غرفة فندق كبير.

لم تتعرف عليها الطفلة في الحال. تظل هناك واقفة أمامها، تنظر إليها وتتعرف عليها، ثم تراه هو، رجل الماندشوري النائم أو الميت، رجل اليد، رجل الرحلة.

يتظاهر بعدم رؤيتها.

إنه هناك حيث كان، على يمين المقعد الخلفي.

تراه من دون أن تنظر إليه.

الســـائق هو أيضا في مكانه، كما يجب، والطفلة تعبر الشارع ملتفتة، ببطء، شاردة.

بالنسبة إليها، فموعد اللقاء هذا، في هذا المكان من المدينة، ظل دائما كما لو كان بداية قصتهما، كما لو كان هو الذي جعلهما عاشقي الكتب التي كتبتها.

كانت تعتقـــد وتعرف أنه هناك، في هذا المشـــهد الخارجي،

انطلاقا من ذكاء رغبتهما معا، واستبعاد كل منطق، وأن لا شيء يمنعهما، وأنهما أصبحا عاشقين.

ربما تتشــكك في أنها ستعبر الشــارع. أو ربما لا تعرف أنها عبرت فضاء الشارع الذي يفصل بينهما.

في البداية لم تتحرك.

ثم تسير ببطء نحوه خلف زجاج السيارة.

تظل هناك.

ينظر أحدهما إلى الآخر، نظرات خاطفة...

السيارة متوقفة في الاتجاه المعاكس لسيرها. تضع يدها على الزجاج. تبعد يدها وتضع فمها على الزجاج، تقبله، وتترك ثغرها هناك. كانت تقول.

وبشكل قوي.

الصيني كان ينظر.

بدوره خفض بصره.

تقتله الرغبة في الطفلة. إنه شهيد هذا الحب.

تعبر الطفلة الشارع من جديد من دون أن تلتفت، تنطلق نحو الثانوية.

تسمع صوت السيارة وهي تتحرك من دون أن تحدث ضجيجا على طريق ليلية تحولت إلى مخمل.

أبدا، في الأشــهر التي تلت، لم يتكلمــا عن الألم المروع لهذا الحب.

المدرسة الثانوية.

الممرات خالية من التلاميذ. لقد دخلوا كلهم إلى الأقسام.

الطفلة متأخرة.

تدخل قسمها. تقول: «أعتذر عن التأخر».

الأستاذ يلقي درسا عن «لويز لابي». يرفض تسميتها بلقبها «صانعة الحبال الجميلة».

في البداية يدلي برأيه الشخصي في لويز لابي. يقول إنه معجب بها جدا، وإنها إحدى شخصيات الماضي النادرة التي أحب أن يعرفها وأحب أن يسمعها تقرأ الشعر.

يحكي الأستاذ أن لويز لابي حين كانت تذهب عند ناشرها المكتبي لمده بمخطوط ديوانها الأخير، كانت تطلب من امرأة صديقة أن ترافقها. لقد ظلت غامضة فيما يتعلق بهذا الجانب، وفي تعليله لهذه الرغبة في أن ترافق التي كتبت القصائد الشعرية امرأة أخرى. قال الأستاذ إن هذه الرفقة ربما كانت لها قيمة التوثيق، خصوصا من طرف امرأة. ثم قال الأستاذ إنه يترك للتلاميذ أن يعبروا عن رأيهم. قال فتى إن السبب يعود إلى خوف لويز لابي من أن يعترضها بعض الرجال في الطريق.

وقالت فتاة إن السبب هو خوفها من أن تسرق منها قصائدها.

وقالت الطفلة إن المرأتين، لويز لابي ومرافقتها، تعرف إحداهما الأخرى جيدا، مما لا يجعل لويز لابي تسأل نفسها هل ترافقها المرأة أم لا بسبب القصائد أو بسبب شيء آخر.

إنها ظهيرة يوم خميس حيث كل الفتيات الداخليات تقريبا يذهبن للنزهة.

يجتزن الساحة المركزية مصطفات مثنى مثنى، كلهن باللباس

الأبيض. الجوارب القطنيـــة البيضاء، والأحزمة البيضاء، ثم القبعات البيضاء هي الأخرى، المصنوعة من القماش الأبيض القابل للغسل.

يخلو القسم الداخلي... بمجرد خروج الفتيات الداخليات، يســقط القســم الداخلي في هوة من الصمت في الســاحة المركزية بسبب الغياب الكلي والمفاجئ للأصوات.

في مكان مغطى من القســم الداخلي الفــارغ، عند زاوية ممرين يفضيان إلى البوابة وأقسام المدرسة الخاصة بالقسم الداخلــي. مــن هذا المــكان المغطى يتناهى صــوت الفتاتين الصديقتــين ممزوجا بموســيقى راقصة صــادرة من حاك موضوع على الأرض. موســيقى راقصة قديمة، تجسد حالة الموت في ميادين القتال الإسبانية. إنها موسيقى عنيفة وذات إيقاع شعبي رائع.

تتحدثــان بكلمــات قليلة حين يتعلق الأمــر بتوجيهات في الرقص تقدمها الطفلة.

حافيتا القدمين على أرضية الممرات، بتنورتين قصيرتين، على موضة تلــك الفترة، من القطن الناصع المعشــق بزهور فاتحة الألوان.

إنهما جميلتان، وقد نسيتا أنهما تعرفان ذلك.

ترقصان. من سلالة بيضاء. وقد أعفيتا من النزهة المنظمة للخلاسيات المتخلى عنهن - باعتبارهما من السلالة البيضاء ومن عائلتين فقيرتين - بطلب بسيط منهما.

تسأل هيلين لاكولين الطفلة عمن علمها الرقص.

- أخي الأصغر باولو.

- لقد علمك كل شيء هذا الأخ الأصغر.

- نعم.

حين تتوقف الأصوات يصبح الصمت مطبقا.

تقول هيلين لاكولين إنها بدأت تحب باولو.

تقــول إنها لا تفهم لمــاذا يتركها والداها هنا. إنها لا تبذل أي مجهود. وإن والديها يعرفان ذلك، وإنهما يريدان التخلص منها. لماذا؟ إنها لا تعرف.

- إنني لا أتحمل فكرة البقاء هنا ثلاث سنوات أخرى. أفضل الموت على ذلك.

تضحك الطفلة.

- منذ متى لم تعودي تتحملين ذلك؟

- منذ أن التقيت بالصيني.

صمت. تنظر الطفلة ضاحكة:

- منذ ثلاثة أيام، إذن؟

- أجــل... لكن هذا بدأ من قبل، وبشــكل قــوي جدا. ليس هــذا فقط، لقد كذبت عليك أيضا. بدأت أيضا أفكر في أخيك الأصغر، بالليل...

إنهما في الظل الطري ترقصان، أشــعة الشمس تتسرب من إحدى النوافذ العالية كالتي في الســجون، والداخليات الدينية، حتى لا يستطيع الرجال الدخول. في زاوية ما تحت أشعة الشمس الخفان مبعثران ومرميان.

خادم شــاب بلبــاس أبيض يجلس في الممــر. إنه أحد هؤلاء

الذين يغنون بالليل بجوار المطبخ، تلك الأغاني الهند صينية التي تذكر بطفولة الفتاتين. ينظر إليهما. إنه جامد مسمر بنظرته إليهما، إلى الفتاتين البيضاوين اللتين ترقصان له وحده من دون علمهما.

تتكلم هيلين مع الطفلة بصوت خفيض:

- هل ستتقابلين مع الصيني؟
- أجل، أظن ذلك.
- متى؟
- ربما بعد لحظة.
- هل تحبينه كثيرا؟
- كثيرا.
- هل أنت على موعد معه؟
- لا، ولكن الأمر مشابه.
- هل أنت متأكدة من أنه سيأتي.
- أجل.
- ماذا تحبين فيه؟
- لا أعرف، لماذا تبكين، هل تختارين ذلك من قبل؟
- نعم ولا، منذ العطلة بدأت أفكر في أن أحب أخاك الأصغر، أن أحب بشرته، ويده... ثم تحدثت عبر أحلامك عنه. أحيانا أناديه بالليل. ثم في إحدى المرات... أردت أن أقول لك ذلك...

تنهي الطفلة جملة هيلين:

- ... في إحدى المرات وقع لك ذلك.
- أجل، لقد كذبت عليك. أكذب ولا تعرفين ذلك، لا

تكترثين...

صمت. تقول الطفلة:

- هل لديك شيء آخر لتقوليه، إنني أعرفه.

تحضن هيلين الطفلة، تخفي وجهها بيديها وتقول:

- أحـــب أن أرافق الرجـــال الذين يرافقون أليـــس ولو لمرة.. أحب أن أحدثك عن ذلك...

تصرخ الطفلة بصوت خفيض:

- لا، إنهم كلهم مصابون بالسفليس.

- هل يموت الناس بسبب ذلك؟

- أجـــل، لقد أصيب أخي البكر بالمرض، ولم ينقذه إلا طبيب فرنسي.

- إذن ما مصيري...؟

- الالتحاق بفرنســـا. أو تعودين إلـــى دَالاَت من دون إعلامك بذلك، ثم تبقين هناك، ولا تغادرين.

صمت.

- أرغب في جميع الخدم، وفي ذاك الذي في الصورة أيضا، وفي الأساتذة، وفي الصيني.

صمت.

تنظر إحداهما إلى الأخرى.

تغرورق عينا الطفلة بالدموع وتقول:

- أود أن أقول لك شيئا... من المستحيل قوله. لكنني أريدك أن تعرفيـــه. لقد كنت أنت. في اليوم الأول بعد وصولك. كان الوقت صباحا، وكنت قد عدت للتو من الحمام. لم أصدق عيني...

تبتعد الطفلة عن هيلين لاكولين، ثم تتبادلان النظرات.

تقول هيلين:

- أعرف هذا، أعرف هذه القصة...

- ألا تعرفين حقا إلى أي حد أنت جميلة؟

- أنا، لا أعرف... لكن ربما، هذا صحيح، أنا كذلك... بسبب أمي، إنها جميلة جدا، إذن من الطبيعي أن أكون أنا أيضا جميلة، أليس كذلك؟ لكن الناس يصفونني بالجميلة ليقولوا شيئا آخر... إنني لست ذكية جدا... وشريرة...

تتعانقان، ثم تهمس هيلين:

- أنت الجميلة... لماذا أنا، لماذا لا أستطيع حتى النظر في المرآة أحيانا؟

- ربما لأنك جميلة جدا... هذا يجعلك تشعرين بالنفور...

خادم المطبخ الصغير ينظر دائما إلى رقص «الفتاتين الفرنسيتين» اللتين لاتزالان تواصلان الرقص.

انتهت الأسطوانة. انتهى الرقص.

الصمت يشبه النوم في القسم الداخلي الخالي.

ثم يصل صوت السيارة إلى المدخل. تذهب الفتاتان والخادم الصغير لينظروا من النافذة. سيارة الليون بولي هناك، أمام مدخل المدرسة. يبدو سائق الليون بولي من خلف الزجاج. الستائر البيضاء تخفي المقاعد الخلفية كما لو كانت هذه السيارة تحمل شخصا محكوما عليه لا تجب رؤيته.

تخرج الطفلة بقدمين حافيتين. خفاها في يديها. تنطلق نحو السيارة. يفتح لها السائق الباب.

يجلسان جنبا إلى جنب.

لا يتبادلان النظر. إنها لحظة صعبة لا يمكن الهروب منها.

بعد أن تلقى السائق التعليمات، ينطلق من دون انتظار.

تسير السيارة ببطء وسط المدينة المملوءة بالراجلين والدراجات وسط حشد الأهالي المعتاد.

عند الشلال تتوقف السيارة، لا تحرك الطفلة ساكنا.

ثم تقول إنها لا تحب المجيء إلى هذا المكان. لا يسأل لماذا. يطلب من السائق العودة.

تلتصق الطفلة بالصيني، ثم تهمس:

- أريد الذهاب إلى بيتك، تعرف ذلك، لماذا جئت بي إلى الشلال؟

يضمها إليه، ثم يقول:

- لأنني غبي.

تظل ملتصقة به، مخفية وجهها، ثم تقول:

- بدأت أحبك. وبشكل لا يمكنك تصوره...

يقول لها إنها لا يجب أن تقول ذلك.

تعده.

ثم يقول إنه هو أيضا يحبها بالقدر نفسه.

عبور ثان للمدينة الصينية.

لا ينظران إلى هذه المدينة. حين يهمان بالنظر إليها، لا ينظران إلى شيء. ينظران من دون الرغبة في ذلك، فيخفضان بصريهما، ويظلان كذلك ينظران بعينين مغمضتين، من دون حركة أو رؤية، كما لو أنهما لايزالان ينظران إلى نفسيهما.

يلتفتان نحو الخارج...

تصلهما المدينة الصينية عبر ضوضاء عربات الترام العتيقة، وعبر ضجيج حروب الجيوش الغابرة المنهكة.

عربات الترام تسير من دون أن تتوقف عند الصفير بنواقيسها الخشبية، وقد التصقت بها كوكبة من أطفال شولين، على الأسطح نساء يحملن رضعا مبتهجين. أما على الأرضيات وسلاسل حماية الأبواب فوضعت سلال من أوراق الصفصاف، مملوءة ببعض الطيور والفواكه. عربات الترام وامتلأت عن آخرها، واحدودبت، فقدت شكلها ولم تعد عربات ترام.

فجأة، ينجلي الحشد من دون أن نفهم لماذا وكيف.

إنه الهدوء. الضجيج كما هو، لكنه يصبح بعيدا. ينجلي الحشد. لم تعد النساء على عجلة من أمرهن.

إنهن هادئات. في أحد شوارع التجزئة السكنية، وكما هو الأمر في كل الهند الصينية، هناك نافورات بمحاذاة رواق مغطى، لا محال تجارية ولا عربات ترام، على الأرضية الملساء يستريح بعض الباعة القرويين في ظل الرواق. ضجيج شولين بعيد.

هنا في هذه القرية، تحت الرواق المفتوح.

باب.

يفتح هذا الباب.

الظلمة.

مكان غير متوقع، متواضع، مبتذل، لا شيء.

يقول:

- لم أختر قطع الأثاث... كانت هنا، واحتفظت بها.

تضحك. ثم تقول:

- لا وجود للأثاث... انظر...

ينظر ويقول بصوت خفيض إن هذا صحيح، فلا وجود إلا للسرير، والأريكة والطاولة.

يجلس على الأريكة، بينما تبقى هي واقفة. تواصل النظر إليه. تبتسم ثم تقول:

- يعجبني البيت هكذا...

تتباعد نظراتهما. بمجرد أن أوصد الباب، وفجأة، تجتاحهما لا مبالاة مشتركة، تنظر إليه. ليس هو الذي ينظر إليها. هي من يقوم بذلك. تشعر بأنه خائف.

بداية من النظرة الناعمة للطفلة يتبدد الخوف.

إنها هي التي تريد أن تعرف، تريد كل شيء، الحياة والموت في الزمن نفسه. هي القريبة من اليأس ومن ذكاء الرغبة، بسبب هذا الأخ الصغير الذي كبر في ظل الأخ المجرم، ويرغب في الموت كل يوم. وكل ليلة، هي، الطفلة تهرب من اليأس.

يقول الصيني بصوت هامس كما لو أن أحدا يمنعه من قول ذلك:

- لقد أحببتك ربما.

تصمت الطفلة وفي عينيها خوف قلق. للإلهاء من دون شك، وببطء، ومن دون ضجة، تتفحص الشقة، تنظر إلى المكان المؤثث الشبيه بأحد فنادق المحطات. وهو، لا يعرف ذلك، ولا يرى هذه

الأشــياء، يحبهــا كذلك، ينظر إليها وهي تقــوم بذلك، تتفحص المكان، وهو لا يفهم لماذا (*).

يقول:

– والدي هو من منحني هذا المكان. يسمونه الشقة.

تكرر كلمة شقة. تقول إنها تعرف هذه الكلمة، لا تعرف كيف، ربما في الروايات. تتوقف أمامه. تنظر إليه ثم تسأله:

– هل مررت بتجربة حب قبل ذلك؟

تنظر إليه نظرة مفعمة بالسعادة.

يسأل:

– يعجبك أن تكون لدي تجارب حب؟

تقول نعم. لماذا لم تقل ذلك. إنها لا تعرف أن تقول ذلك.

جوابها صدمه، جعله يشعر بالخوف قليلا. إنها لحظة صعبة بالنسبة إليه. تقول إن حبها الأول كان لرجل تعيس أضعفه الحب اليائس.

يسأل الصيني: طان؟ تقول لا، ليس هو. يقول:

– اسمعي... سنغادر ونعود مرة أخرى...

الطفلــة لا تجيــب. ينهض الصيني، يخطــو بعض الخطوات مديرا ظهره إليها، يقول:

– إنك صغيرة جدا... وهذا يخيفني. أخاف من ألا أستطيع... أن أسيطر على الانفعال... تفهمين هذا؟

يلتفت نحوها. ابتسامتها مضطربة.

تتردد. تقول إنها لم تفهم. لكنها تفهم قليلا... إنها هي أيضا

(*) في حالة الفيلم المأخوذ عن هذا الكتاب، لا ينبغي أن تكون الطفلة، جميلة فقط. قد يشــكل هذا خطرا على الفيلم. لأن الأمر يتعلق بشيء آخر يعتمل داخل الطفلة، شيء «يستحيل تجنبه»، فضول متوحش، قلة تربية، قلة حياء بالضبط. الجمال لايفعل شيئا. إنه لايَرى.إنه يُرى.

خائفة بعض الشيء، يسأل:

- إنك لا تعرفين شيئا.

تقــول إنها تعرف قليــلا لكنها لا تعرف هل هــذا هو ما يود الكلام عنه.

صمت.

- كيف تعرفين؟

- بواسطة أخي الصغير. كنا نرتعب من أخينا البكر، وكنا ننام معا حين كنا صغارا. هكذا بدأ الأمر...

صمت.

- تحبين أخاك الصغير.

تصمت الطفلة طويلا، قبل أن تجيب وتتكلم عن ســر حياتها، هذا الأخ الأصغر... المختلف...

- أجل.

- أكثر من أي شيء في العالم؟

- أجل.

يقول الصيني بتأثر:

- هو ذلك المختلف قليلا عن الآخرين...

تنظر إليه، ولا تجيب.

تدمع عيناها. ولا تجيب. ثم تسأل:

- كيف تعرف هذا؟

- لا أعرف كيف...

صمت.

- صحيح، إن كنت تقطن ساديك فستعرف أشياء كثيرة عنا.

– ليس قبل أن ألتقي بك. بل بعد رحلة العبَّارة، فقد تعرف عليك سائقي.

– كيف قال لك ذلك... حرفيا...

– قال لي: إنها ابنة مديرة مدرسة البنات. لديها أخوان، عائلة فقيرة جدا. والأم مدمرة.

يشعر بخجل مفاجئ، لم يعرف سببه، ربما شباب الطفلة الذي برز فجأة وبعنف تام صعب المنال وغير محتشم تقريبا.

هو أيضا العنف الآتي من الأم من دون شك. هي لا تستطيع أن تعرف هذه الأشياء. يسأل:

– هل الأمر كذلك؟

– الأمر كذلك. إننا نحن... كيف عبَّر عن أن أمي كانت مدمرة؟

– قال إنها قصة رهيبة، كان حظها عاثرا.

صمت. لا تجيب. لا تريد أن تجيب عن ذلك. تسأل:

– نستطيع أن نبقى قليلا هنا. الحرارة شديدة بالخارج.

ينهض، يشغل المروحة. يجلس من جديد. يراها، ينظر إليها. وهي لا تبعد بصرها عنه. تسأل:

– ألا تعمل؟

– لا. لا شيء.

– لا تقوم أبدا بأي شيء... أبدا...

– أبدا.

تبتسم له ثم تقول:

– تقول، أبدا. كما لو كنت تقول «دائما».

الطفولة العائدة: تنزع قبعتها.
تترك فردتي الحذاء تنفلتان من قدميها.
ينظر إليها.
صمت.
يهمس الصيني:
- غريب أن أحبك إلى هذه الدرجة...
تقف تحت المروحة. تبتسم لطراوة الهواء. إنها فرحة.
تقصد بابا يوجد في الجانب الآخر من باب المدخل.
تحاول فتحه. تلتفت نحوه. تسأل:
- إلى أين يفضي هذا الباب؟
يضحك:
- إلى زقاق آخر. للهرب. ماذا تظنين؟
تبتسم الطفلة للصيني. ثم تقول:
- يفضي إلى حديقة، أليس كذلك؟
- لا. إنه باب فقط. كيف تفضلينه؟
تعود، وتأخذ كأسا من الحوض، تقول:
- باب من أجل الفرار.
ينظر أحدهما إلى الآخر. تقول:
- أنا عطشانة.
- ثمة ماء مصفى بالثلاجة.
صمت. ثم تقول:
- أحب هذا المكان.
يسأل كيف تجد المكان.

بعد تردد تقول:

- إنه مهجور- تنظر إليه مليا - ويعبق بنَفَسك.

ينظر إليها وهي تتفحص المكان، تشرب، وتعود.

ينساها. ثم يتذكرها. ينهض.

ينظر إليها. يقول:

- سأشتاق إليك

تنظر إليه.

في الكتاب الأول، قالت إن صخب المدينة كان قريبا ويسمع احتكاكه بالشبابيك كما لو أن أناسا يعبرون الغرفة. وأنهما كانا وسط هذا الصخب العمومي، معروضين، هناك، وسط هذا المرور للخارج في الغرفة، ستقول ذلك أيضا في حالة فيلم أو كتاب، وأيضا، ودائما ستقول ذلك. كما تقول ذلك هنا أيضا.

يمكننا أن نقول أيضا، في هذا الصدد، إننا نظل في «انفتاح» الغرفة على صخب الخارج الذي يدق مصراعي النافذة، والجيران، ووسط احتكاك الناس بخشب الشبابيك، والضحكات، وركض الأطفال وصياحهم، ونداءات باعة المثلجات، والبطيخ، والشاي. ثم، بغتة، ووسط هذه الموسيقى الأمريكية المخلوطة بصخب قطارات المكسيك الجديدة؛ وبنغمات هذا الفالس اليائس، بهذه النعومة الكئيبة والتامة، وبيأس سعادة الجسد.

قالت إنها مازالت ترى الوجه. ومازالت تتذكر أسماء الناس.

أما اسمه فقد نسيته. (أنْتَ) تقول.

قالت له ذلك مرة. ومن جديد نسـيت ذلـك. بعدها فضلت من جديد أن تجعل هذا الاسم يصمت في الكتاب وتدعه منسيا للأبد.

كانت لاتزال ترى، وبوضوح، مكان.............، النباتات الميتة، جدران الغرفة المطلية بالجير.

تتذكر المدينة اللامرئية والبرانية دوما.

يسـتيقظ مـن دون أن يتحرك. إنه نصف نائـم. يبدو بهيئة مراهق. يشعل سيجارة.

صمت.

يقترب منها، لا يقول لها شـيئا. تشـير إلـى النباتات. تتكلم بصوت منخفض.تبتسـم، أما هو، فيقـول إن عليها ألا تعود إلى التفكير في ذلك، وإن النباتات ماتت منذ مدة، وإنه ينسـى دائما أن يسقيها.

وإنه سينساها دائما، يتكلم بصوت منخفض كما لو أن الشارع سيسمعه:

- أنت حزينة.

تبتسم وتقوم بإشارة خفيفة:

- ربما.

ينظر إليها. تراه. تخفض بصرها.

تنظـر إليه أيضا. تـراه. تتراجع. تنظر إلى الجسـد النحيل والطويـل، المتكامـل والمرن. إنه بنفس الجمـال الخارق لليدين. تقول:

- لم أر مثل جمالك.

يحدق فيها الصيني كما لو أنها لم تقل شيئا. ينظر إليها.

إنه منشغل بهذا فقط، النظر إليها، حتى يبقي داخله شيئا من هذا الذي أمامه، هذه الطفلة البيضاء. يقول:

- أنت دائمة الحزن قليلا، أليس كذلك؟

صمت. تبتسم ثم تقول:

- دائما، قليلا... نعم... ربما... لا أعرف...

- هذا بسبب أخيك الصغير...

- لا أعرف...

- ... ماذا؟

- لا شيء... هذه أنا... إنني هكذا...

- هذا ما تقوله أمك؟

- أجل.

- ماذا تقول؟

تقول: يجب أن تدعها وشأنها، إنها هكذا وستبقى كذلك.

يضحك. يصمتان.

يسيران بالسيارة في شولين الخالية.

عند مدخل المطعم، يمران أمام إحدى المرايا، تنظر إلى نفسها. ترى نفسها في المرآة. ترى القبعة الرجالية المصنوعة من وبر عود الورد بالشريط الطويل الأسود، والجوربين الأسودين المهترئين بالماسات الصناعية، وأحمر الشفاه الصارخ الذي كانت تضعه حين كانت في العبارة أثناء لقائهما الأول.

تنظر إلى نفسها. إنها قريبة من صورتها. تقرب أكثر.لا تتعرف

على نفسها. لم تفهم ماذا حصل. ستفهم ذلك بعد سنوات، لقد أصبح لها الوجه المهشم الذي ستعرفه طيلة حياتها.

يتوقف الصيني. ثم ينظر إليها :

- أنت متعبة...

- لا... ليس هذا... لقد شخت. انظر إلي.

يضحك. ثم يصبح جادا. ثم يلمس وجهها ويتفحصه عن قرب. يقول:

- صحيح... وفي ليلة واحدة.

يغمض عينيه. إنها السعادة ربما.

من داخل المطعم يأتي ضجيج مذبحة الصنوج الصينية، التي لا يمكن، لشخص لا يعرفه أن يتخيله. يطلب الصيني الانتقال إلى قاعة أخرى.

يتم إرشادهما إلى قاعة صغيرة خاصة بالأشخاص غير الاعتياديين. هنا صوت الموسيقى يصل ضعيفا. على الطاولات مناديل. عدد لا بأس به من الزبائن الأوربيين من الفرنسيين، والإنجليز. قوائم الطعام باللغة الفرنسية، بينما يخاطب النادل زملاءه في المطبخ باللغة الصينية.

يطلب الصيني لحم البط المشوي وصلصة الفاصولياء المخمرة. وتطلب الطفلة حساء باردا. إنها تتكلم لغة المطاعم الصينية مثل فيتنامية من شولين.

تضحك بفظاظة في وجه الصيني. تداعب وجهه وتقول:

- السعادة غريبة. إنها تأتي مرة واحدة، مثل الغضب.

يأكلان. تلتهم ما يوجد أمامها. يقول الصيني:

- الغريب أنك تشجعين على أخذك إلى...
- إلى أين؟
- إلى الصين.
تبتسم... ثم تكشر.
- أنا لا أحب الصينيين كثيرا... هل تعرف هذا...؟
- أعرف.

تقول إنهــا تريد أن تعرف كيف أصبح والــده فاحش الثراء. يقــول إن والده لا يتكلم أبدا عن المال، لا مع زوجته، ولا مع ابنه، لكنه يعرف كيف بدأ ذلك.

يحكي للطفلة:

بدأ ذلك مع التجزئات الأرضية، لقد شــيد ثلاثمائة تجزئة. إنه يملك عددا من شوارع شولين.
- وشقتك أيضا.
- نعم، بالطبع.

تنظــر إليه، تضحك. يضحــك أيضا، من الســعادة من دون شك.
- هل أنت ابنه الوحيد؟
- لا. لكننــي الوريث الوحيد للثروة، لأنني ابن الزوجة الأولى لوالدي.

لم تفهم الأمر جيدا. يقول لها إنه لن يشرح لها أبدا، لأن هذا ليس مهما.
- من أي جهة في الصين قدمت؟
- من المانشوري. لقد أخبرتك بذلك من قبل.

- هل تقع في الشمال؟
- في الشمال البعيد، حيث الثلج.
- وصحراء غوبي، إنها ليست بعيدة عن المانشوري.

لا أعرفها .ربما لها اسم آخر. لقد رحلنا من المانشوري حين أعلن سـون يات سين عن الجمهورية الصينية. بعنا كل الأراضي وكل حلي والدتي، ورحلنا إلى الجنوب.

مازلت أتذكر ذلك. كان عمري خمس سنوات. كانت أمي تبكي وتصرخ. وقد ألقت بنفسـها على الطريق ورفضت التحرك قيد أنملة. قالت إنها تفضل الموت على أن تعيش من دون حليها...

يبتسم الصيني للطفلة.

- والدي عبقري في التجارة، لكنني مازلت أتساءل متى وكيف جاءته فكـرة التجزئات الأرضية، إنني لا أعـرف، أن له أفكارا عبقرية أيضا.

تضحك الطفلة. لا يسأل لماذا تضحك.

تقول:

- ووالدك، هل اشترى حلي والدتك من جديد، فيما بعد؟
- أجل.
- كيف كانت...؟
- كانت أحجارا من اليشم، والماس، والذهب. كل مهور الفتيات الثريات في الصين متشـابهة تقريبا... لا أعرف بالضبط. كانت هناك أيضا بعض أحجار الزمرد.

تضحك. يقول:

- لماذا يضحكك هذا؟

- إنها نبرة صوتك حين تتكلم عن الصين.

ينظر أحدهما إلى الآخر. ثم، وللمرة الأولى، يبتسمان. تستمر الابتسامة للحظة طويلة. لم يعد خائفا.

إننا لا نعرف بعضنا، يقول الصيني.

يستمران في الابتسام. يقول:

- صحيح... في الواقع؛ أنا لا أصدق أنك هنا أمامي. ماذا كنت أقول؟

- كنت تتكلم عن التجزئات الأرضية...

- التجزئات، يذكرني هذا بالأكواخ الأفريقية، وأكواخ القش في القرى. إن ثمنها أقل بكثير من ثمن بيت.

إنها تُكْتَرَى بأثمنة ثابتة من دون جدال. هذا ما يريده أهالي الهند الصينية، وبخاصة هؤلاء القادمون من القرى. الناس هناك، لا يتخلى عنهم، ولا يبقون أبدا وحيدين. إنهم يعيشون في الرواق المفضي إلى الشارع... لا ينبغي تدمير تقاليد الفقراء.

إن نصف السكان ينامون في الأروقة المفتوحة. وعند هبوب الريح الموسمية يتلطف الجو، ويكون هذا رائعا.

- صحيح إن ذلك يبدو مثل حلم، النوم خارجا. وأيضا أن نكون معا، ومفترقين في الوقت نفسه.

تنظر إليه. تضحك. يضحكان كل الوقت.

لقد عاد صينيا من جديد. إنه سعيد جدا، سعادة فرحة وحادة في نفس الوقت، جد قوية، وهشة.

يأكلان، ويشربان الشوم. يقول:

– أنا سعيد جدا، لأنك تحبين التجزئات.

ربمـــا هو «مهووس» بقصة الصين (*)، هناك في هذه المبالغة جنون ما يعجب الطفلة. يقول، يسأل:

– ظلت الصين مغلقة في وجه الأجانب لمدة قرون. هل تعرفين ذلك؟

لا إنهـــا لا تعرف. تقول إنها لا تعـــرف عن الصين إلا القليل. تعرف القليل عن أسماء الأنهار والجبال، ولا شيء آخر.

لا يستطيع تجنب الكلام عن الصين.

يحكـــي أن أول فتـــح للحـــدود كان من طرف الإنجليز ســـنة ١٨٤٢.

ثم يسأل:

– هل تعرفين هذا؟

إنهـــا لا تعرف. لا شـــيء، تقول إنها لا تعرف شـــيئا. أما هو، فيواصل:

– بـــدأ هذا في نهاية حرب الأفيـــون. الحرب – بين الإنجليز واليابانيـــين ســـنة ١٨٩٤- قســـمت الصـــين وطـــاردت الملـــوك الماندشوريين. أما الجمهورية الأولى فقد أعلنت سنة ١٩١١.

وأصبح ســـون يات ســـين أول رئيس للجمهوريـــة – مع موته بـــدأ عصر ملكي، انتهى مع الاســـتيلاء على الحكم من طرف الـ «كوو – مين- تانغ» وانتصار الوارث الروحي لســـون- ياتّ- سين، شانّغّ كايّ – شيك، الذي يحكم الصين حاليا. وشانغ كاي- شيك يصارع الشيوعيين الصينيين. تعرفين هذا؟

(*) في حالة الفيلم تكون الكاميرا نحو الطفلة حين يروي الصيني قصة الصين.

قليلا، تقول. إنها تصيخ السمع إلى الصوت، وإلى هذه اللغة الفرنسية الأخرى التي تتكلمها الصين. إنها مفتونة.

يواصل:

بعد الحرب، لا أعرف أي حرب بالضبط، عند نهايتها، فهم الصينيون أنهم ليسوا وحدهم الموجودين فوق الأرض، باستثناء اليابانيين كانوا يعتقدون أنهم، الشعب الوحيد على الأرض، وأن الصين موجودة في كل مكان. نسيت أن أقول لك: منذ عدة قرون، كان كل ملوك الصين ماندشوريين، حتى آخر واحد منهم. بعد ذلك لم يعد هناك ملوك، بل قادة.

- أين عرفت كل هذا؟

- والدي، هو من لقنني ذلك، وأيضا في باريس... فقد قرأت المعاجم.

تبتسم له. تقول:

- أحب اللغة الفرنسية التي تتكلمها حين تتحدث عن الصين...

- إنني أنسى اللغة الفرنسية حين أتكلم عن الصين، أحب الذهاب سريعا، مخافة السأم، لا.

- أستطيع الكلام عن الماندشوري في هذه البلاد لأن، كل صينيي الهند الصينية هنا يأتون من يينان.

يتناول فاتورة الحساب.

تنظر إليه الطفلة وهو يؤدي الثمن. يقول:

- ستتأخرين عن المدرسة الداخلية.

- أستطيع الدخول في أي وقت أشاء.

بتكتــم يندهش الصيني من حرية الطفلة التي باغتته. معاناة حية وفتية تظهر في عينيه حين يبتسم للطفلة.

تنظر إليه بصمت. تقول:

– إنك يائس. أنت لا تعرف ذلك. لا تعرف أن تكون يائسا. أنا أعرف ذلك... ومن أجلك.

– أي يأس؟

– يأس المال. لقد عانت عائلتي من هذا أيضا. الأمر متشابه بين والدك ووالدتي..

تسأله ماذا سيفعل في الليلة القادمة. يقول إنه سيكرع الشوم مع الســائق. سيثرثران معا. إنه أحيانا لا يعود إلى البيت إلا مع أشعة الشمس الأولى.

عن أي شيء يتحدثان، تسأل. يقول:

– عن الحياة.

ويضيف:

– إنني أحكي لسائقي عن كل شيء.

– حتى عنك وعني؟

– أجل، وحتى عن ثروة والدي.

* * *

المدرسة الداخلية ليلا.

الســاحة خالية. الخدم الصغار يلعبون الــورق بجانب غرفة الطعام. واحد منهم يغني. تتوقف الطفلة. تنصت إلى الغناء.

إنها تعرف الأغانــي الفيتنامية. تنصت لحظة. تتعرف عليها كلها. يجتاز الخادم الصغير، خادم الموســيقى الراقصة، يتبادلان

التحية ويبتسمان: مساء الخير.

كل نوافذ عنبر النوم مشـــرعة بفعل الحرارة. الفتيات أغلقن على أنفسهن وراء الأقفاص البيضاء للكلل. تتعرف عليهن بصعوبة وقد جعلتهن قناديل الممرات الزرقاء شاحبات جدا.

تســـأل هيلين لاكولين هامســـة عن الصيني. تقول الطفلة إن عمره سبعة وعشـــرون عاما، نحيف، كما لو أصيب بمرض حين كان طفلا، لكنه ليس خطيرا. ولا يقوم بأي شـــيء. ولكنه لو كان فقيرا ســـيكون الأمر رهيبا، لأنه لن يستطيع العمل وسيموت من الجوع... لكنه، لا يعرف هذا.

تســـأل هيلين لاكولين هل هو جميل. تتردد الطفلة، تقول إنه كذلك.

- هل هو جميل جدا؟ تسأل هيلين.

- أجل. نعومة البشرة، اللون الذهبي، اليدان، كل شيء. تقول إن كل شيء فيه جميل. وجسده مثل جسد باولو في الماضي.

هذا ما تعتقده الطفلة.

تقول هيلين إنه معتل بسبب الأفيون ربما.

ربما. لحســـن الحظ أنه غني جـــدا، ولا يعمل أبدا. إن الثراء أيضا يجعله معتلا. لا يقوم بأي شيء إلا السهر وتدخين الأفيون، ولعب الورق... إنه مليونير صعلوك...

تنظر الطفلة إلى هيلين لاكولين. تقول:

- أمر غريب، هكذا أحبه.

- حين تتكلمين عنه، أُعجب به أيضا.

تقبل إحداهما الأخرى.

حتى تصمت أغاني الخدم الصغار الذين اقتربوا من سلالم العنبر.

صمت. تبكي هيلين لاكولين بهدوء. لا ترى الطفلة ذلك. تقول:

- وأنت هل تعتقدين أنني سأتحمل رجلا صينيا؟

- من اللحظة التي طرحت فيها السؤال، لا أعتقد ذلك.

هنا، تقول هيلين للطفلة ألا تهتم بما تقوله، إنه الانفعال.

تسأل كيف قامت بذلك. تقول لها الطفلة:

- كيف في نظرك؟

- أعتقد أنك قمت بذلك لأنك كنت فقيرة.

تقول الطفلة: ربما. تضحك بانفعال.

هيلين مرتابة، لا تجيب.

يواصل الخدم الصغار الغناء في الساحة تجاه قاعة الطعام. تنصتان إلى الأغاني الفيتنامية. ربما تغنيانها بصوت منخفض وترددانها معهم باللغة الفيتنامية(*).

صبيحة اليوم التالي.

تقول هيلين لاكولين: إن الجلبة التي يسمعنها هي بسبب المرشات البلدية. وإن العطر الذي يشممنه هو رائحة الشوارع المغسولة التي تصل حتى ممرات عنابر النوم بالقسم الداخلي.

توقظ الأخريات، فيصحن في وجهها بأن تدعهن لحالهن.

(*) في حالة الفيلم سيتكرر هذا التفصيل عند عودة الطفلة كل ليلة لإبراز مزيد من الحياة اليومية في الفيلم، باستقلال عن أوقات الدخول إلى الأقسام، وأوقات النوم، والاستحمام، وتناول الوجبات.

تواصل هيلين لاكولين. تقول: إن الرائحة الطرية هي أيضا بسبب الميكونغ. وإن هذه المدرسة الداخلية، أصبحت، في نهاية الأمر، مثل بيتهن الأصلي.

بعد بوحها، تشرع هيلين في الغناء. إنها سعيدة، هذه الأيام، كما لو كانت بدورها مغرمة بالصيني، وهي تسمع طفلة ساديك تتحدث عنه. تسير الطفلة ببطء في شارع ليوطي. الشارع خال تماما. تصل أمام الثانوية. تتوقف. تنظر إلى الشارع الخالي. كل التلاميذ التحقوا بأقسامهم. نسمع ضجيج فترات استراحة أخرى يأتي من إحدى الساحات الداخلية.

تظل الطفلة في الخارج.

إنها لا تنتظر الصيني، بل شيئا آخر، إنها لا تريد الدخول إلى الثانوية إلا عند نهاية فترة الاستراحة.

يقرع الجرس فجأة. ثم تدخل، وتلتحق ببطء بالممر حيث يقف التلاميذ في انتظار الأستاذ.

يصل الأستاذ.

ويدخل التلاميذ.

يبتسم الأستاذ للطفلة، ابنة مديرة المدرسة الأهلية لساديك..

ممر الثانوية خال.

تغمر الشمس أرضية الممر وجزءا من الجدار.

نعود إلى الممر الخالي لحظة قرع جرس المساء.

اختفت أشعة الشمس من الأرضية.

نرى الطفلة من الخلف، وهي تخرج من ممر الثانوية. أمامها

بالقـــرب من باب الثانوية، ســـيارة الليموزيـــن الصينية وداخلها السائق الذي يراها، وينزل من السيارة ليفتح لها الباب.

تفهم ذلك. لم تطرح عليه أي سؤال. إنها تعرف. جاء السائق ليحملها إلى حبيبها.

خلال المســـافة تظـــل أمامنا حيث تنظر، هذا المســـاء، خارج السيارة من دون أن تراه.

تعبـــر المدينـــة. توجـــد بعـــض المعالم مثل مســـرح شـــارنير والكاتدرائية، وســـينما عدن، والمطعم الصيني الخاص بالزبائن البيـــض. «الكونتيننتـــال»، أجمل فندق في العالـــم. وهذا النهر، هذا الســـحر دائما، ليل نهار، خاليا أو آهلا بالسفن الخيزرانية، والنـــداءات، والضحـــكات والأغاني، والطيـــور المائية التي تحلق عاليا فوق الخيزرانات.

بالمئزر الليلي الأســـود، يفتح الصيني البـــاب قبل أن تطرقه. يظلان واقفين برهة. ثم يتناول حقيبتها المدرســـية، ويرميها على الأرض. تهمس له:

- انتظر.

صمت. تسأل:

- إذا عثـــرت علينا الشـــرطة... - تضحـــك - إنني قاصرة جدا...

- سأســـجن لليلتـــين أو ثلاث ربما... لا أعرف. ثم ســـيؤدي والدي، وينتهي الأمر.

شـــارع شولين. المصابيح مشتعلة في ضوء الشفق. وقد تلونت السماء باللون الأزرق المسائي، بحيث يمكن للعيون أن تنظر إليها

من دون أن تتحرق.

على حافة الأرض تحتضر الشمس.

وتموت.

في الشقة.

يحل الليل. السماء لامعة وتزداد زرقة. الطفلة تروي قصة حياتها، يستمع الصيني إليها من بعيد، شارد الذهن. إنه هناك، يتملكه ألم حب هذه الطفلة. لا يعرف جيدا ماذا تحكي. وهي منغمرة في القصة التي ترويها. تقول له إنها تروي دائما هذه القصة، ولا يهمها أن يستمع إليها أحد. تقول: حتى هو إن لم يستمع، فهذا لا يهم.

لا يهم إن كنت لا تستمع، تستطيع أن تنام حتى. فأن أروي هذه القصة هو، بالنسبة إلي، كتابتها فيما بعد. لا أستطيع منع نفسي من ذلك. سأكتب هذا ذات مرة: حياة أمي. كيف تم اغتيالها، وجعلها تعتقد لمدة سنوات أنه من الممكن سرقة مدخرات شخص ما، ثم رفض استقبالها وطردها وادّعى أنها مجنونة، وأنهم لا يعرفونها، يهزأون منها، ويجعلونها تعتقد أنها تاهت في الهند الصينية. وجعل الناس يصدقون ذلك ويشعرون بالخزي من الاختلاط بها. سأقول كل هذا. لم نر بيضا لسنوات. فالبيض لم يكونوا يرضون بنا. لم يكن لأمي إلا بعض الأصدقاء القلائل. مرة واحدة، تحول كل شيء إلى يباب.

صمت.

الصيني:

- هذا ما يدفع بك إلى كتابة هذا الكتاب...

الطفلة:

– ليس هذا في الواقع، ليس إخفاق أمي. إنها فكرة ألا يكون رجال مكتب التحفيظ قد ماتــوا كلهم، وأن يظلوا أحياء ليقرأوا هذا الكتاب ويموتوا بسبب قراءته.

لقد قالت أمي: «مازلت أذكر ذلك اليوم، اليوم الأول، أظن أنه كان أجمل يوم في حياتي. حملت مجموع ما ادخرته من مال في حقيبة صغيرة، وأذكر أنني أعطيتها لرجال المســح، وشــكرتهم، لأنهــم باعوني تلك القطعة الأرضيــة الرائعة الواقعة بين الجبل والبحــر. بعد ذلك، حين صعد الماء للمــرة الأولى، قالوا إنهم لم يســبق لهم أن رأوها بمكتب تحفيــظ الأراضي بكامبو، وإنها لم تقدم أي طلــب لامتلاك الأرض من قبل. عندها بكت الأم كثيرا وظلت تبكي وقالت إنها ســتظل تبكي حتــى موتها، كانت تعتذر دائما لأبنائها لكنها لم تســتطع فعل أي شــيء أمام نذالة حقراء المستعمرة البيض.

كانت تقول: «بعد ذلك كتبوا إلى حاكم الكمبودج وأخبروه أنني أصبحــت مجنونة، ويجب ترحيلي إلى فرنســا»، بعد ذلك بدأت تستعيد الأمل.

تســلحت بالأمل لمدة ثلاث ســنوات أخرى، لم نستطع، نحن أبناءها، أن نفهم ذلك، واعتقدنا بدورنا، أن أمنا مجنونة، من دون أن نقول لها ذلك. راحت تشتري من جديد جذوع شجر الشورى لتوطيد الحواجز.

اقترضت المال، واشــترت أيضا أحجــارا لتوطيد المنحدرات على طول المشاتل.

حتى هذا الحد، ظلت الطفلة تبكي.

ثم أتى مد البحر.

ثم استسلمت.

دام هذا أربع سنوات تقريبا، لا نعرف بالضبط، ثم انتهى كل شيء، استسلمت.

قالت: انتهى كل شيء، قالت: إنها استسلمت، ثم قامت بذلك، رحلت.

حقول الأرز غطتها المياه، التي حملت الحواجز.

أما حقل الأرز الذي ظل في الأعلى، فقد منحته إلى الخدم، مع البنغل وقطع الأثاث.

تبتسم الطفلة، تعتذر، تحاول ألا تبكي، لكنها تبكي.

- لم أستطع بعد، التعود على حياة أمي هذه، ولن أستطيع أبدا.

ظل الصيني ينصت إلى كل ما تحكيه الطفلة.

يدعها وحيدة، بعيدة. أما هي، فقد نسيته.

استمع إلى قصة الأم.

صمت. تواصل الطفلة:

- نذهب أحيانا، نحن الأربعة، مرة أو مرتين في السنة إلى هناك أثناء العطلة، أنا وطَانْ وأمي وباولو.

تستمر الرحلة الليل كله. ولا نصل إلا في الصباح. نعتقد أننا سنمكث لكننا لا نستطيع، فنغادر في مساء اليوم نفسه.

أمي هادئة الآن، فقد انتهى كل شيء، إنها مثلما كانت في الماضي. غير أنها لا تريد أي شيء، تقول إن أبناءها تحملوا ذلك

ببطولة، جنونها وهي. تقول إنها لا تنتظر شيئا غير الموت.

تصمت الطفلة، تحاول ألا تبكي، ومع ذلك تبكي (*).

كانت تقول إن الأمر كذلك في العالم كله.

وإن حياتها كانت هكذا.

يقول الصيني:

- وأنت، هل تعتقدين ذلك؟

- لا أعتقد فيما وقع لأمي، وما يقع للناس الفقراء، وليس الجميع.

- وبالنسبة إلى طان.

- بالنسبة إلى طان اعتقد خلاف ذلك.

- ما هو خلاف ذلك؟

- لا أعرف بعد. ليس سوى طان من سيعرف ذلك.

لم تعرف بعد أنه يعرف.لكنه لا يعرف أن يقول ذلك بعد. سيقول ذلك، وسيفكر فيه، في يوم ما.

إنها جد متأكدة من هذا.

يسألها الصيني: هل ذهبت لرؤية حقول الأرز بعد العاصفة الأخيرة.

تقول نعم. لقد ذهبوا إلى هناك. هي وباولو وطان لم يتعرفوا على أي شيء وسط الزبد. لقد تحول المكان إلى هوة من الزبد. عثاكيل معلقة على شجيرات الشورى بجانب البحر. وعلى الجبل أيضا. وفي الغابة، على الأشجار العملاقة.

(*) طوال حياتها، حتى وهي متقدمة في السن، ظلت تبكي بسبب الظلم الجائر والرهيب الذي كانت أمهم ضحية له. لم تسترجع ولو سنتيمترا واحدا، ولم يصدر، بتاتا، في حق محتالي مكتب تحفيظ الأراضي الفرنسي توبيخ واحد.

صمت. ثم تقول الطفلة:

- لم أذهب إلى المدرســـة اليوم. أفضل البقاء معك. بالأمس أيضا لم أذهب. أفضل أن أبقى معك لنتحدث معا.

الصيني واقف.

يجلس على إحدى الأرائك.

لا ينظر إليها.

فجأة. تصدر الموسيقى الأمريكية من رواق البيوت، مقطوعة دوك إلينكتـــون. ثم هذا الفالس اليائس القـــادم من مكان بعيد معزوفا على البيانو (*).

تنصت الطفلة والصيني إلى الفالس. تقول الطفلة:

- إنـــه يعزف في هذا الوقت دائما... حين يعود من العمل من دون شك...

- من دون شـــك. لقد جاء إلى التجزئة السـكنية منذ بضعة أسابيع. أظن أنه خلاسي...

- إنها دائما الموسيقى نفسها التي تتردد. كما لو في فيلم، ثم تصبح حزينة.

يسأل الصيني من أين قدم طان.

تقول الطفلة: إن الأم عثرت عليه في أعلى الجبل عند الحدود بين ســيام والكامبودج ذات مســاء؛ حين كانت عائدة من مزارع الفلفل مع أبنائها.

يتبـادلان النظـرات. وينصتـان. تجلس بالقـرب منه. يقول الصيني:

(*) هذا الفالس سيكون فالس نهاية الفيلم.

- سأشتري بعض الأسطوانات حين ترحلين إلى فرنسا.

- أجل.

يصمتان.

تقول:

صحيح. إننا سنفترق للأبد. ننسى ذلك. أليس كذلك. سأتزوج ذات يوم. إنني لا أستطيع. وأعرف أنني سأتزوج ذات يوم. إنني لا أستطيع. وأعرف أنني سأقوم بذلك.

تصمت الطفلة. كلامه يشعرها بالخجل.

يقول الصيني:

- تعالي. انظري إليّ.

يأخذ وجهها بين يديه ويجبرها على أن تنظر إليه.

- متى ستعودين إلى فرنسا. أخبريني حالا.

نهاية السنة الدراسية. بعد الامتحانات. لكن هذا ليس مؤكدا بعد. أمي لا تريد الرحيل من المستعمرة. في كل عطلة تظن أنها سترحل، ثم تبقى. تقول إنها، مع الزمن، أصبحت ابنة البلد، مثلنا، باولو وأنا، وأن هناك كثيرا من أمثالها هنا.

- وهذه السنة، سترحل...تعرفين ذلك.

- هذه السنة، ولأنها طالبت بترحيل ابنها البكر، ستأخذ إجازة لرؤيته. لا تستطيع أن تعيش، أمي تقول: أبقى طوال حياتي في هذا المكان: ساديك. حتى إن قمت ببعض الأسفار، فسأعود دائما إلى هنا. لأن الثروة توجد هنا. يستحيل أن أرحل. إلا إذا كانت هناك حرب. تنظر إليه الطفلة. لا تفهم. يقول:

- لدي خطيبة شابة من الماندشوري، منذ سنوات.

تبتسم الطفلة. تقول: إنها تعرف ذلك. أخبرني طان بذلك. الكل يعرف، وفي كل مكان. الخادمات الصغيرات هن من يروين أخبار العائلات.

صمت. ثم تقول الطفلة:

- أستطيع أن أصغي مائة مرة لقصصك عن الصين...

- تتناول يديه، وترفعهما إلى وجهها، طالبة منه أن يروي لها. يروي الصيني، وعيناه لا تفارقانها، هذه الطفلة البيضاء، قصة الصين الإمبريالية.

- منذ الطفولة، كنا نسترعي انتباه العائلتين، هي وأنا، كان عمري سبعة عشر عاما، أما هي فلم تكن تتجاوز السابعة. هكذا هو الأمر في الصين. على العائلتين معا أن تكونا غنيتين. يدخل هذا ضمن التقاليد الصينية منذ زمن طويل، ولا يمكن تغيير ذلك.

ينظر إليها:

- هل أجعلك تشعرين بالملل؟

- لا.

ثم ننجب أطفالا بعد ذلك، وتصبح لدينا مسؤوليات، وبسرعة لا نستطيع أن نغير شيئا، حتى غير الأغنياء من الصينيين يعرفون نساء غير زوجاتهم، والزوجات يعرفن ذلك، إنهن مطمئنات لذلك؛ لأن الرجال يعودون دائما إلى بيوتهم.

- لا يوجد هذا إلا في الصين...

- لكنه لا يمارس بشكل مثبت إلا في الصين.

- هل ستتزوج بهذه الخطيبة؟

- أجل يقول وهو يشهق، ولن أتزوج بك. أبدا، حتى في الحياة الأخرى.

تبكي بين يديه، لأنها جعلته يبكي، ثم تبكي.

- لو لـم نتعرف، ولو كنـت صينية ثرية، هل كان سـيحدث الشيء نفسه؟

ينظر إليها، لا يجيب. يقول:

- ربما كان الأمر متشابها، لا يمكنني أن أعرف.

- تلمس جبهته ثم تقول:

- حرارتك مرتفعة.

ينظر إليها بكل ما أوتي من قوة. يقول:

- من كثرة الانفعال، لأنني رويت لك كل هذا...

بيديه يكشف وجه الطفلة يراه كاملا. تقول:

- أحب أن نتزوج، أن نكون عشيقين متزوجين.

- لكي نعاني.

تتوقف عن الابتسام.

تبكي، وتقول: كيف ستكون هذه السعادة؟

- أجـل، من أجل ذلك، ومن أجل أن نعاني بأكبر قدر ممكن. ثم نعود بعد ذلك.

صمت. ثم تقول:

- سـتعرف زوجتـك بقصتنا عـن طريق خادمات سـاديك الصغيرات. وستعاني، وربما تكون قد علمت بذلك مسبقا، بدافع هذه المعاناة التي سببتها لكما ستصبحان أيضا زوجين.

- أجل.

يقول:

- إن العائــلات تنتظــر الطفل الأول، الوريــث... منذ الليلة الأولى... أشعر بالخوف من هذا ... ومن ألا أستطيع.

لا تجيب. تقول:

- ثم ستقوم برحلة حول العالم.

- أجــل. هذا صحيح. عندها ســتكونين على الســفينة في الطريق إلى فرنسا.

صمت. تسأل:

- على السفينة، أين...؟

- في المحيط الهندي، قرب كولومبو.

- لماذا هناك...؟

- قلت هذا بالمصادفة.

صمت. ثم يقول الصيني:

- ســنذهب إلــى لونغ - هاي. لقد حجــزت غرفة في «بنغل فرنسا».

- متى؟

- متى تشائين. هذا المساء. هذه الليلة.

- والثانوية؟

يخاطبها الصيني، بغتة، بصيغة الجمع:

- ليس مهما، إنكــم لا تذهبون إلى الثانوية كل يوم، حتى في السابق. إنكم تذهبون إلى حديقة الحيوانات، لدي معلومات.

تتراجــع الطفلة مذعورة بعض الشــيء. تســأل وهي تصرخ بصوت خفيض:

- لكن لماذا الذهاب إلى لونغ - هاي؟

يحدق فيهـــا الصيني مليا. ثم يغمض عينيه متأثرا. إنه يتألم خوفا من فقدان الطفلة. يقول:

- بــدأ فراقك يعذبني، لقد أصبحت مجنونا... لا أســتطيع الابتعاد عنك، هذا مستحيل، وأعرف أنني سأقوم بذلك.

لم يعد ينظر إليها. وبعينين مغمضتين يداعب شعرها. تتراجع مرة أخرى، تنهض، وتتوجه بالقرب من الباب. يسأل:

- لماذا لا تحبين لونغ - هاي؟

- ذهبــت إليها مع عائلتي، وقد أصابني الذعر مرة... النمور تأتي بالليل لتســتحم في لونغ- هاي، وذات مــرة عاينت برفقة أخي الأصغر، آثارا حديثة العهد، لنمر صغير... ومع ذلك... لذنا بالفرار... ياله من خوف. ثم إن شاطئ البحر مقفر، لا يوجد أي شــيء، لا قرى، ولا ناس، ليس هناك سوى مجموعة من المجانين والمتسولين يذهبون للتسول في les bonzeries.

تغمض الطفلة عينيها. إنها شاحبة. يدنو منها الصيني.

- ما الذي يجعلك تشعرين بالخوف أكثر النمور أم الناس؟

تصيح:

- الناس، وأنت أيها الصيني.

صمت طويل. ثم يسأل:

- من أين يأتي هؤلاء الناس؟

- من «أَنام»، إنها جزر خليج «ألونغ» عبارة عن منحدرات.

كثيرون جاءوا من هذه الإصلاحيات، تعرف... باولو كوندور، هنــاك أيضا كثير من المنحرفين، والمجانين الذين يعبرون، هناك

أيضا نســـاء مطرودات مــن بعض القرى. فـــي الأديرة يقدمون لهم أرزا ســـاخنا وشـــايا، وأحيانا يقتل هؤلاء النـــاس كلبا تائها ويطبخونه على الشـــاطئ فتفوح رائحة كريهة تنتشر لمسافة مائة كيلومتر على شاطئ البحر.

- هذا المكان هو طرق الغزوات الصينية أيضا.

- ربما... لست على علم بذلك، كنت أظن أن الصينيين كانوا يمرون عبر جبال «يونان».

تقـــول: إن من بين كل هـــؤلاء الناس لا يخيفها ســـوى هؤلاء النسوة، لأنهن يضحكن ويبكين في الوقت نفسه.

- من أين يأتين؟

هذا ما لا تعرفه الطفلة. هنا، فهي تختلق كل شـــيء. تقول إن هؤلاء يأتين من الهند عبر البحر... يختبئن في السفن الشراعية، وقد فقدن عقولهن من شدة الخوف، ومن هول رؤيتهن أطفالهن وهم يموتون بسبب الجوع، والشمس، والغابة، وسحائب الذباب، والكلاب المسعورة ثم النمور. يقول الصيني إن هناك متسولة من بـــين هؤلاء، تتجول بين فين- لونغ وســـاديك، تصرخ بالليل وهي تضحك، وتهلوس، وتغني... ما يجعل المرء يشعر بالذعر.

تقول الطفلة إنها تعرف هذه المتسولة كما يعرفها الجميع بين ساديك وفين- لونغ، لقد قدمت من لاووس، وما تنشده هو أغان يتغنون بها في لاووس لتنويم الأطفال.

يضحك، ثم يقول:

- إنك تختلقين ذلك... كيف عرفت؟

تشعر الطفلة بالخوف. هل تكذب؟ هي لا تعرف كيف عرفت

ذلك. ولا تعرف هل هي تكذب أم لا. تقول:

– أخبرتني آن ماري ستريتر. إنها تعرف لاووس، لقد أتت من لاووس، وقد تعرفت على كلمات الأغاني اللاووسية. كما حدثت أمي عن ذلك مرة... في النادي...

تنشـــد الطفلة المقطع الـــذي تغنيه متســـولة الغانج في أحد شوارع الموقع بالليل. تقول:

– هل رأيت... إنني أعرف أغنية تنويم الأطفال هذه.

– من روى لك كل هذا عن لونغ– هاي؟

– أمي ودو، طان أيضا... منذ... منذ زمن طويل.

– لماذا يروون لك ذلك؟

– لأكون مهتمة، لماذا تريد أن...

– أمك لا تذهب إلى النادي، لأنها تشـــعر بالعار بسبب أخيك البكر، والســـيدة ســـتريتر لا تعرفانها، لا أنـــت ولا أمك... إنك تروين أي شيء...

تصرخ الطفلة فجأة:

– الكل يمكن أن يرى الســـيدة آن – ماري ســـتريتر، ففي كل مساء تكون في شـــرفتها هي وبناتها... ماذا تعتقدها، من تكون السيدة ستريتر. أولا، كل الناس يعرفون قصتها في لاووس، وفي فيتنام، مع هؤلاء الشباب، لقد نشر ذلك في الصحف...

يســـتمع إليها الصينـــي. إنه هائم بها. تواصـــل الطفلة رواية القصة:

ثم إننـــي رأيتها أثناء درس اللغـــة اللاتينية لدى كاهن فين – لونغ. كان يعلم اللاتينية للأطفال الفرنسيين، وكانت هي قد أتت

مع بناتها. لقد سألت الكاهن: من أكون. قال: إنها ابنة مديرة مدرسة البنات، وقد ابتسمت لي، ثم قالت للكاهن: إن لدي نظرة غريبة، سمعتها تقول ذلك. رويت ما وقع لأمي، وفي الغد ذهبت بي عند الطبيب الدكتور سامبوك لتعرف إذا كنت سأصاب بالحول في المستقبل. وقد اطمأننت. فلن أصاب بشيء.

– وهل تعلمت اللاتينية؟

– بعض الشيء. بعدها تخليت عن ذلك.

صمت.

– ألم يخطبك أحد للزواج؟ هذا على الموضة بسايغون...

– بلى. لقد وافقت أمي في البداية، وبكيت، فرفضت.

آخر الخُطَّاب كان سيدا يعمل بالبريد البحري، كان عمره بين الخامسة والثلاثين والثامنة والثلاثين... كان دخله مريحا جدا. كادت أمي تستسلم، أما أنا فرفضت... كان ضخم الجثة، شديد الحمرة.

صمت. ثم يسأل الصيني:

– هل أصابك الخوف قبل قليل؟

– أجل. وأنت أيضا؟

– أجل.

– كيف ستقتلني في لونغ – هاي؟

– كصيني. فضلا عن قساوة الموت.

يلحق بها جنب الباب. تبدو متعبة. يتحدث إليها بالصينية، هذا يضحكها، دائما.

– غن لي أيضا بالصينية.

يغني بالصينية. ثم يبكي. تبكي معه من دون أن تعرف لماذا.

لا ينظر أحدهما إلى الآخر. ثم تترجاه.. ويظل هناك من دون حراك.. تغمض عينيها. تقول:

- خذني.

يهمس لها الصيني:

- أخبريني بموعد سفرك حين تعلمين به.

- لا.

يطلب منها ذلك مرة أخرى.

يقول: إنها طفلته، أخته، حبه. لا يبتسمان.لقد أطفأ النور.

- كيف ستقتلني في لونغ- هاي؟قل لي ذلك مرة أخرى.

- مثل صيني. فضلا عن وحشية الموت.

تردد نهاية الجملة كما لو كانت تقرأ قصيدة.

* * *

الثانوية. الممرات مكتظة بالتلاميذ. مازالت الطفلة تنتظر في ركن بأحد الممرات، وحيدة، ووجهها نحو الخارج.

يمر الناظر، يضع يده على كتفها ويقول:

- أريدك لحظة.

تتبع الناظر إلى مكتبه.

- إنـــك تعلمين بكل تأكيد، أن الأمهات أمرن بناتهن بقطع كل علاقة بك.

تبتسم الطفلة. إنها تعلم ذلك.

- لكن هناك ما هو أخطر. فأمهات التلميذات أخبرن مديرة ثانوية ليوطي بأنك لا تلتحقين كل مساء بالقسم الداخلي. يبدي

الناظر انفعالا غاضبا خفيفا. كيف عرفن ذلك..شيء غريب...
إنك محاطة بشبكة من الأمهات المتجسسات - يبتسم - بسايغون.
يردن أن تبقى بناتهن وحدهن. يقلن - تماسك -
لماذا تريد الحصول على البكالوريا... هذه... الصغيرة؟
صمت. تسأل:
- هل تحذرني بسبب أمي؟
- أجل. تعرفين كم أحترمها. (لحظة زمنية). ماذا في وسعنا أن نفعل في نظرك؟
- يمكن أن تستمر أنت وأنا... أنت تستمر في تحذيري، وأنا أستمر في عدم الالتحاق بالقسم الداخلي. أنا لا أعرف... وأنت؟
صمت.
- أنا لا أعرف.
يقول الناظر:
- لقد أخبرت الناظرة أمك...
- نعم. أمي لا تهمها سمعتنا نهائيا... عائلتي ليست كالعائلات الأخرى.
- ماذا تريد أمك لأبنائها؟
- تريد أن يحصل أبناؤها على وظيفة ليسمحوا لها بأن تموت. وهي لا تعرف أن هذا هو ما تريده.
يواصل الناظر ممارسة دوره:
- لقد تغيبت عن الثانوية أيضا. لكنني سأتكفل بذلك.
- أعرف ذلك.

ينظر إليها الناظر بتعاطف

- نحن صديقان...

تبتسم الطفلة. إنها ليست متأكدة من ذلك.

- هل هذا صحيح؟

يؤكد الناظر:

- هذا صحيح.

تبتسم.

صمت.

- إنها سنتك الأخيرة في الهند الصينية...

- أجل. أسابيعي الأخيرة ربما... حتى إن طلب المدير ترحيلي. فلن يكون لهذا أي أهمية. لكنني أعرف أنه لن يفعل ذلك.

- لن يفعل ذلك أبدا.

يبتسم الناظر للطفلة.

- أشكرك على ثقتك بنا. «هيئة التدريس ستنقذ الهند الصينية من الغباوة البيضاء». هذا ما قالته لي أمك. ولم أنس ذلك أبدا.

تبدو الطفلة شاردة، لا مبالية خلال المقابلة.

تقول:

- أظن أنه بالنسبة إلى أمي، فكل شيء سيكون غير ذي أهمية. لقد عملت على ترحيل ابنها البكر. ولا شيء آخر يهمها الآن.

لا يعرف الناظر ذلك.

- آه، لقد قامت بذلك أخيرا...

- أجل.

- للأسف...إنه ولد ودود... بيير. عرفته طفلا...تعلمين هذا...

إنها تعلم هذا. تغرورق عيناها بالدموع. يلحظ ذلك:

- لقد كان فظيع التصرف معك ومع أخيك الأصغر...

جرس الالتحاق بالأقسام. يخرج الناظر والطفلة معا من المكتب. تسأل:

- تعرفت على أمي في طونكان؟

اندهش الناظر. لم تتكلم عن عائلتها أبدا.

- أجل، ولم تكوني قد ولدت بعد.

- كيف كانت. إنني لا أعرف.

باندهاش، وبلطف يجيب:

- كانت ذات عينين زرقاوتين وشعر أسود، جميلة، كثيرة المرح، ضاحكة، وجذابة جدا. لقد كانت امرأة كاملة.

- أكثر من ذلك، ربما.

- ربما...

- وأبي...؟

- كان مجنونا بها. وبالمناسبة، لقد كان أستاذا رائعا. تعرف الطفلة حياة الأم. لقد كانت هذه الأخيرة تحدثها عنها دائما. تقول:

- أظن أنها كانت سعيدة معه مع ذلك.

- لقد كانت كذلك من دون شك. كانت تبدو امرأة مفعمة بالحياة لكن لا يمكن أن نعرف أبدا. يلتفت نحو الطفلة ويردد: أبدا.

– صحيح. أود أن أقول لك... في الحياة استمري في القيام بما يحلو لك، ومن دون نصيحة من أحد. تبتسم. وتقول:

– حتى منك...؟

يبتسم لها. ويقول:

– حتى مني.

* * *

الشقة.

يقول الصيني:

– سأذهب إلى ساديك هذه الليلة، أنا مضطر إلى ذلك، وسأعود بعد يومين. سيحمل إليك السائق الطعام. وسأوصلك إلى القسم الداخلي قبل الذهاب.

تحدثه عن عزلها الذي أصبح موضوع الحديث في الثانوية. تضحك.

– لم يتكلموا معي في الثانوية عنك.

– إنها فكرة من صنع خيالك.

– لا. هناك شكايات من أمهات التلميذات.

يضحك معها. يسأل من أي شيء يخاف هذا المجتمع. تقول:

– من السفليس، والطاعون، ومن الحرب، والكوليرا، والصينيين.

– لماذا الصينيون؟

– الصينيون ليسوا مستعمرين. إنهم هنا، مثلما هم في أمريكا. إنهم مجرد مسافرين، ولا يمكن الإمساك بهم بجعلهم مستعمرين. وهذا مؤسف.

يضحـــك الصيني. تشـــاركه الضحـــك. تنظر إليـــه، مفتتنة ببداهته.

– صحيح. إنه لا شيء. لا شيء..

صمت.

– ســـأذهب هذا المساء إلى القسم الداخلي. لقد أخبروا أمي أيضا...

يأتي الســـائق بصينية الطعام. يضعهـــا على الطاولة. يأكلان وهما يتكلمان، ويتبادلان النظرات.

يبتسم الصيني:

– لقد تعبنا، هذا رائع.

– أجل وقد جعنا ولم نشعر بذلك.

– من الممتع أن نتكلم أيضا.

– أجل. هل تتحدث أحيانا مع بعض الأشخاص؟

تعلو وجهه ابتســـامة طفل. تنظر إليه. وتقول مع نفســـها إنها لن تنساه أبدا. تقول:

– تحدثت كثيرا مع أمي.

– عن أي شيء؟

– عن الحياة.

يضحكان.

تنظر إليه. تسأل:

– هل تشبهها؟...

– يقولـــون ذلك، وأنا لا أعرف.لقـــد دخلت أمي الجامعة في أمريكا، لم أخبرك بهذا.. درست القانون، لتصبح محامية.

– ووالدك، لم يقبل بذلك...

– بالضبــط... هي أيضا لــم تعد ترغب في ذلك، كانت تريد أن تظــل معه طــوال اليوم. لقــد قاما برحلة حــول العالم بعد زواجهما.

صمت.

تقول الطفلة وهي تفكر:

– ربما قد أعجب أمك.

يبتسم الصيني.

– ربما. لقد كانت غيورة. لكن ربما...

– هل تفكر فيها أحيانا؟

– يوميا.

– متى ماتت؟

– منذ عشر سنوات، كان عمري سبعة عشر عاما، بعد يومين من إصابتها بالطاعون. هنا، بساديك.

يضحك ويبكي في الوقت نفسه. يقول:

– هل ترين... لم أمت من الألم.

تبكي معه. يقول إن أمهــا كانت غريبة الأطوار أيضا، وكثيرة الابتهاج.

في ســـاحة ثانوية ليوطي، تنتظر هيلــين لاكولين صديقتها. دائما هناك، في المكان نفســه، ممتدة على المصطبة نفسها في مواجهة البوابة بالجزء المعتم من الساحة.

– أين كنت؟

– معه.

صمت. بدت هيلين لاكولين قلقة. والخوف نفسه دائما من أن تهجر. مازالت مرعوبة. راحت تحل ضفائر الطفلة. تشم شعرها، ثم تقول:

- لم تذهبي إلى الثانوية؟

- بقينا في الشقة.

صمت. تقول هيلين لاكولين:

- في يوم ما، سيتحول هذا إلى مصيبة... ستطردين من الثانوية، ومن القسم الداخلي... ومن كل مكان.

تقول الطفلة إنها ستكون سعيدة، إن حصل ذلك يوما.

- وأنا حينها؟

- أنت... أبدا لن أنساك...

تقول هيلين لاكولين إنهم اتصلوا بالهاتف:

- طلبوا مني أن أخبرك أن عليك الذهاب لرؤية الحارسة المداومة. إن الأمر مستعجل. إنها خلاسية صينية ولطيفة، ومازالت شابة في سننا.

ذهبت الطفلة لرؤية الحارسة.

تبدو الحارسة مبتسمة، وشابة.

- تطلبين رؤيتي.

- أجل... تعرفين لماذا أتيت... أخبرتني هيلين...

- لقد اضطررنا إلى إخبار والدتك... لأن ثانوية ليوطي اتصلت بنا... والناظر أيضا...

لم يدهش ذلك الطفلة. تضحك. تقول إنها لم تفكر في ذلك. تقول:

– لم يكن من الضروري إخبار أمي، فالأمر بالنسبة إليها لا يهم. وقد تنساه على الفور... إنها تتظاهر بحسن السيرة... لكن هذا غير صحيح. أمي لا يهمها أي شيء. إنني أنظر إليها كملكة... ملكة من دون وطن... كيف أقول ذلك... من دون وطن من الفقر... والجنون...

تلحظ الحارسة دموع الطفلة التي راحت تبكي من دون أن تعلم ذلك. تقول:

– أعرف قصة أمك. معك حق. إنها مدرسة كبيرة أيضا... كانت محبوبة من الجميع في الهند الصينية لشغفها بمهنتها... لقد ربت آلاف الأطفال.

– ماذا يقولون عنها...؟

يقولون إنها كانت لا تتخلى أبدا عن طفل قبل أن يتعلم القراءة والكتابة. أبدا. كانت تقدم دروسا إضافية، حتى وقت متأخر بالليل، لأطفال كانت تعرف أنهم سيصبحون فيما بعد، عمالا، ويدويين، ومستغلين كما كانت تقول، ولا تتركهم حتى تتأكد من أنهم يستطيعون قراءة عقد عمل.

تقول الطفلة إن هؤلاء التلاميذ كان يتعذر عليهم الذهاب إلى بيوتهم لأنها كانت بعيدة جدا، فتجعلهم الأم يقضون الليل عندها وينامون على الحصائر في الصالون، تحت السقيفة. لقد كان ذلك رائعا تقول الطفلة، هؤلاء التلاميذ في كل أنحاء البيت.

تنظر الحارسة الشابة إلى الطفلة طويلا. ثم تقول من دون أدنى حرج:

– هل أنت من لديك عشيق صيني...

- ... نعم، أنا.

تبتسمان. ثم تقول الحارسة الشابة:

- الكل يعرف... في كل المـــدارس، والإعداديات. فلأول مرة يحدث ذلك.

- كيف تفسرين هذا؟

- قــد يكــون مصــدره هـــؤلاء الصــينيون كبــار الســـن، الذيـــن لا يريـــدون لأبنائهم التعرف على فتيـــات بيضاوات، ولو كعشيقات.

- وبالنسبة إليك، كيف حدث ذلك؟

- كان والدي أبيض... رجل جمارك... ووالدك؟

- إنه مدرس. أستاذ رياضيات.

تضحكان كتلميذتين.

تقول الحارسة:

- على والدتك أن تأتي لزيارة المديرة، حتى لا ألاقي مشكلات. إنني مضطرة إلى أن أطلب منك ذلك...

تعدها الطفلة.

الصباح الباكر. وبعد سفرة ليلية قامت بها الأم برفقة طان.

تجتاز الأم الســـاحة الخالية. تتوجه نحـــو المكتب الذي كانت فيه الحارســـة بالأمس. بالجوربين القطنيين الرماديين والحذاء الأســـود المتهرئ، وشعرها المسحوب تحت غطاء الرأس، وحقيبة اليد الكبيرة التي عرفها بها أبناؤها منذ زمن بعيد.

دائمـــا هذا الحداد على الأب منذ ثلاث عشـــرة ســـنة وهي باللباس نفسه: القماش الأسود فوق غطاء الرأس الأبيض.

سيدة مسنة، فرنسية هي أيضا، تستقبل الأم. إنها مديرة ثانوية ليوطي. تعرف إحداهما الأخرى منذ أن جاءتا إلى الهند الصينية مع انطلاق تمدرس الأطفال الأهالي العام ١٩٠٥، مع الوحدات الأولى من المدرسين الذين قدموا من بلدهم المستعمر. تتكلم الأم عن ابنتها:

- لقد كانت طفلة متحررة دائما، من دون هذا، فهي تهرب من كل شيء. أنا نفسي، أمها، لا أستطيع أن أخالفها في شيء... علي أن أتركها على سجيتها حرة إن أردت أن أحافظ عليها.

وبغتة، ومن دون تكلف، تعرفتا. كلتاهما قدمت من الشمال، من با - دو - كالي. تتكلم الأم عن حياتها:

- ربما لا تعلمين، فبقدر ما هي حرة، تعمل صغيرتي بجد واجتهاد في الثانوية. ما حدث لابني البكر رهيب، وخطير، تعرفين هذا من دون شك، فكل شيء يعرف هنا... إن دراسة الصغيرة هي أملي الوحيد.

لقد سبق للمديرة أن سمعت الأساتذة يتكلمون عن الطفلة في اجتماعاتهم بثانوية شاسلو - لوبا.

حكت الأم عن موت الأب، وعن استشراء داء الزحار الأميبي ونكبة العائلات التي فقدت الأب، والأخطاء التي ارتكبتها، وقلقها الدفين، وعزلتها.

بكت المديرة مع الأم. لقد سمحت للطفلة بأن تقطن في القسم الداخلي كما لو كانت في نزل.

تخرج الأم من مكتب المديرة. تعبر الساحة من جديد. رأتها الطفلة، نظرت إليها، ولم تتوجه نحوها. إنها تشعر بالعار بسبب

أمها. صعدت إلى عنبر النوم واختبأت، ثم راحت تبكي هذه الأم ذات المظهر غير اللائق التي تشعرها بالعار.

إنه أحد ممرات الثانوية. السماء تمطر. جميع التلاميذ يوجدون تحت السقيفة في الساحة الثانية، بينما الطفلة وحدها تحت سقيفة الممر الذي يفصل بين الساحتين. لقد قاطعها الجميع.

هذا ما تتمناه، أن تكون في هذا المكان. تتأمل المطر المتساقط على الساحة الفسيحة والخالية.

صخب فترة الاستراحة يأتي من بعيد، من الجانب الآخر من الممر، مفصولا عنها، إلى الأبد، إنها تحدسه. إنها تعرف مسبقا، أنهما سيظلان كذلك إلى الأبد، كما هما في الحاضر. لا تسأل لماذا. فقط، إنها تعرف أن الأمر كذلك.

في ذلك اليوم، سيارة الصيني أمام باب الثانوية، وداخلها السائق بمفرده. ينزل من السيارة ويخاطب الطفلة بالفرنسية:

- السيد الشاب سافر من جديد إلىساديك. والده مريض.

يقول إن لديه أمرا بمرافقتها إلى الثانوية وإلى القسم الداخلي خلال غياب السيد.

في داخلية ليوطي، الخدم الصغار يغنون في الساحات. وهيلين لاكولين نائمة.

في الغد، وفي المكان نفسه من الشارع المؤدي إلى الثانوية، السائق ليس بمفرده، فثمة السيد الشاب، داخل السيارة. إنها ساعة خروج التلاميذ من الثانوية. تقترب الطفلة منه. ومن دون كلام، وأمام المارة، وحشد التلاميذ، يظلان متضامين، وقد نسيا

تماما كل ما حولهما.

يقول الصيني:

- والدي سيعيش. لقد رفض. يقول إنه يفضل أن يراني ميتا. يبدو أن الصيني تناول شراب الشوم، والطفلة لا تفهم ما يرويه، لا تقول له ذلك. لكنها تستمع إليه.

إنها تجهل الأسباب الحقيقية وراء سفر الصيني. يخاطبها بتلك الفرنسية الرديئة لصينيي المستعمرة حين يكونون قد تناولوا شراب الشوم. يقول:

- لقد توسلت إليه. طلبت منه أن أتزوجك لمدة سنة. ثم أرسلك، فيما بعد، إلى فرنسا. يستحيل أن أترك هذا الحب، يستحيل أن أتركك.

تصمت الطفلة، ثم تسأل أين دار هذا الحديث مع الأب. يقول الصيني إن ذلك كان في غرفة الأب، في ذلك البيت بساديك. تسأل الطفلة أين كان يوجد الأب حين كانا يتحدثان. يقول الصيني إن الأب يوجد حاليا على سرير ميدان طوال اليوم، لأنه عجوز، نبيل وثري، لكنه كان، قبل ذلك يستقبل الناس في مكتبه ذي الطراز الأمريكي، وإنه نجل هذا الأب، يحتج دائما وهو يستمع إليه.

استبدت بالطفلة رغبة في الضحك... لكنها لم تضحك.

يروي الصيني للطفلة، ودائما بفرنسية مترددة. لكن ما تسمعه الطفلة من خلال هذه الكلمات، وهذه الأجوبة، هو قصة الأب. يروي الصيني:

- أقول له إنني لم أتعود على هذا، لأنه أقوى مني، وأقول هذا

فظيع بالنسبة إلي... أن أفترق عنك هكذا. وإنه، هو، والدي، عليه أن يعلم مقدار حب كهذا، حب لم يعد موجودا أبدا في الحياة.

يبكي الصيني وهو يردد: أبدا في الحياة. يقول:

- لكن والدي لا يهمه أي شيء.

تسأل الطفلة: هل عرف في حياته حبا كهذا. لا يعرف الصيني. يفكر، يحاول أن يتذكر. ليقول بعد برهة: أجل من دون شك. كان ذلك حين كان شابا. لقد أحب تلك الفتاة من كانتون، كانت طالبة هي أيضا.

تسأل الطفلة هل تحدث لأبيه عن ذلك. يقول الصيني:

- لم أثر الموضوع مع أي أحد، ماعدا أمي. وقد كان ذلك بعد نهاية قصة الحب هذه. لقد عانت أمي كثيرا بسبب ذلك.

يصمت الصيني.

تغمض الطفلة عينيها. إنها ترى النهر أمام الفيلا ذات الخزف الأزرق. تقول إن سلما كان هناك... بدرجات تنحدر إلى أعماق النهر.

تقول إن الدرجات لاتزال هناك دائما. من أجل النساء والأطفال والفقراء، للسباحة وغسل حاجاتهم في ماء النهر، وإن الدرجات تستمر في الانحدار حتى تختفي. وإن الأب موضوع على سرير ميدان في مواجهة هذا السلم ليرى النساء وهن ينزعن ثيابهن ويتقدمن وهن ضاحكات، نحو ماء النهر، وهو أيضا، الصيني الصغير، كان يشاركه النظر إليهن حين كان لايزال في سن تسمح له بذلك.

يقول الصيني إن الأب كان قد أعطاه رسـالة مفتوحة موجهة إلى الأم ليقرأها. وقد قرأها وأعادها إلى الأب. قال إنه نسي ما كانت تقوله تلك الرسالة للأم. لم تصدقه الطفلة. تقول الطفلة إنها من دون شك، لن ترى مرة أخرى السلم والنساء اللواتي ينزلن إلى النهر. وإنها الآن سوف تتذكر ذلك طوال حياتها.

يتذكر الصيني بدوره محتوى رسالة ثانية، كان الأب قد كتبها لابنه، وأن هذا الأخير ضيعها. بعد ذلك وجدت مع تلك التي كانت قد أرسلت للأم. يخرجها الصيني من جيبه ليترجمها للطفلة:

– «لا أستطيع أن أقبل بما تطلبه مني، تعرف ذلك، بعد مدة السنة التي تطلبها مني، أصبح من المستحيل أن تبتعد عنها. إذن، ستفقد زوجتك المستقبلية ومالها، وأنه يستحيل بالنسبة إليها أن تحبك بعد هذا. أنا سأحافظ على التواريخ التي عينتها العائلتان».

يواصل الصيني ترجمة رسالة الأب:

– «أعرف وضع والدة هذه الفتاة. حاول أن تحصل على معلومات بخصوص ما تحتاج إليه تسديد ديون الحواجز ضد مياه المحيط. أعرف تلك المرأة. إنها امرأة محترمة. وقد تعرضت للسرقة من طرف موظفي مكتب التحفيظ الفرنسيين بالكامبودج. إن لديها ابنا عاقا. أما ابنتها الصغيرة، فلم يسبق لي أن رأيتها من قبل. لم أكن أعلم بوجود ابنة في هذه العائلة».

تقول الطفلة إنها لم تفهم شيئا مما تقوله رسالة الأب. تمنع نفسها من الضحك، ثم لم تعد تستطيع ذلك، لتنفجر ضاحكة في النهاية. يشاركها الصيني، هذا الضحك.

يستعيد الصيني رسالة الأب من يدي الطفلة ليكمل قراءتها:

- «سأعلم بعد أيام تاريخ رحيلها. عليك بالذهاب لرؤية الأم، في هذا اليوم بالذات، فيما يتعلق بمسألة المال. وإلا فات الأوان. عليـــك أن تكون مهذبا جدا معها، وأن تعاملها باحترام بالغ حتى لا تشعر بالحرج، وتقبل بالمال».

حـــين يصل الصينـــي إلى بيـــت الأم، يجد صينيـــين آخرين ينتظران. كانا جالســـين على الأرض، متكئين على الجدار. إنهما مالكا محششة الميكونغ.

يتعارف الصينيون الثلاثة فيما بينهم.

الابـــن البكر يجلـــس إلى طاولة غرفة الطعـــام. لا يبدو عليه أنـــه يفهم ما يجري، كما لو كان نائما، تعلو وجهه صفرة مدخني الأفيون ذوي الشفاه المتدلية المحمرة والنازفة.

هنـــاك باولو، الأخ الأصغر أيضـــا. كان ممددا بجانب حائط غرفة الطعام. مراهق جميل كخلاســـي. يبتســـم هو والصيني. ابتسامته شبيهة بابتسامة شـــقيقته. بجانب الأخ الأصغر هناك شـــاب آخر وسيم جدا. إنه طان سائق السيدة الصغير. ثمة شبه بينـــه وبين الأخ الأصغر والأخت، لا نعرف ســـببه، قد يكون تلك النظرات الخائفة والبريئة.

المشـــهد ثابت. لا أحد يتحـــرك، لا أحد يتكلم. لا أحد يصدر التحية.

يتلفظ الصينيون الثلاثة ببعض الجمل، بهدوء شديد.

ثم يلوذون بالصمت.

يتوجه العشيق الصيني نحو الأخ البكر ويشرح له:

– يقولون إنهم رفعوا شـكوى ضدكم. إنهم مالكو محاشـش الميكونـغ. أنتم لا تعرفونهـم، لا تعرفون إلا المسـتأجرين الذين ليسوا سوى مستخدمين.

الأخ البكر لا يجيب.

تخـرج الأم من الحمام بقدمين حافيتين وفسـتان فضفاض من صنع دو، الشـعر مبلل ومخبول. الأخ الصغير يجلس، وظهره للحائط، بعيدا عن وسـط المشـهد، وقد بدا عليه الاهتمام بما يـدور حوله من هـذا الغدو والرواح لمجهولين فـي البيت. ينظر الصيني إلى الأم بفضول متحمس.

تبتسـم له ابتسـامة يرى فيها شبها كبيرا بابتسـامة ابنتها، وابتسامة الأخ الصغير.

لا تعيـر الأم أدنى اهتمام لوجود صينـي ثالث بالبيت، حتى وهـو بلباس أنيق علـى الطريقة الأوروبية. فبالنسـبة إليها، كل الصينيين يخرجون من محاششں. تسأل ابنها البكر:

– كم تريد؟

– اسأليهم. على أي حال، فكلهم أنذال وكذابون.

بغتة، تكتشف الأم الصيني، الذي لم تره أبدا من قبل:

– هل صحيح، سيدي، ما يقوله ابني؟

الصيني:

– إنـه صحيح – ثم يضيف مبتسـما – اسـمحي لي، لكنهم لن يتنازلوا أبدا. سـيمنعونكم من صعـود الباخرة... وإذا أردتم التخلص منهم، فمن الأفضل أن تدفعوا لهم.

تكتشـف الأم أن «الصيني الثالث» ليس واحدا من الدائنين.

تبتسم له.

يخاطب الصيني أشباهه بالصينية. يخرجون من البيت على الفور بمجرد أن يتعرفوا على ابن الصيني صاحب البيت الأزرق.

يسأل الابن البكر الصيني المجهول:

– لماذا أنت هنا؟

يلتفت الصيني إلى الأم. ويجيبها:

– لقد طلبت رؤيتي سيدتي.

تتساءل الأم عمن يكون:

– من أنت؟... إنني لا أذكر...

– ألا تذكرين... إن الأمر يتعلق بابنتكم...

يضحك الأخ البكر من المزحة.

تسأل الأم:

– ماذا حصل مع ابنتي؟

لا يخفض الصيني بصره. يبتسم للأم. إنه يشعر هذا اليوم بنوع من الوقاحة السعيدة ومن الثقة بالنفس أنه موجود هنا، في بيت هؤلاء البيض الفقراء... تبتسم له الأم.

ينظر إليها. ثم يجيب:

– أظن أنك تعرفين، لقد أصبحت عشيقها.

صمت.

تندهش الأم من دون مبالغة.

– منذ متى؟

– منذ شهرين...

الأخ البكر:

– الكل يعرف. ماذا تريد؟

– لا أريد شيئا. إنك أنت سيدتي... لقد بعثت برسالة إلى والدي تطلبين منه رؤيتي.

تنظر إلى ابنها مستفهمة. يقول الابن البكر:

– أنا من كتب الرسالة. إنها رسالة واضحة. ألم يخبرك والدك بما نريد؟

يتجاهل الصيني الابن موجها كلامه إلى الأم:

– والدي لا يريد زواج ابنه بابنتكم، سيدتي. لكنه مستعد لدفع المال اللازم كي تتخلصي من ديونك وتغادري الهند الصينية.

يقول الابن البكر:

– لأنها فقدت... لهذا يرفض والدك الزواج؟

ينظر الصيني إلى الأخ بصمت، ثم يقول وهو يبتسم:

– ليس هذا فقط. لكن أيضا، لأنها ليست صينية.

تقول الأم:

– ولأنها فقيرة...

يبتسم الصيني، ويجيب كما لو أن الأمر يتعلق بلعبة من الأخذ والرد:

– أجل. وصغيرة أيضا... لكن هذا أقل حدة. ففي الصين يحبون الفتيات صغيرات السن.

صمت. ثم يكشف الصيني عن سبب قدومه:

– سيدتي، يقول والدي إنه مستعد لأن يدفع مقدارا معينا من المال في محاولة لمحو ما ألحقته من ضرر بعائلتكم.

الأخ البكر:

- كم؟

يتظاهر الصيني بعدم السماع.

تصرخ الأم بغتة، وقد طفح كيلها. بينما يبتسم لها الصيني. تقول الأم:

- لكن... سيدي... أن تقول الأشياء هكذا... كيف تريدني أن أقدر أمرا كهذا... إنه العار...؟

- ليس عليك أن تقدري أمرا كهذا سيدتي. عليك أن تذكري المبلغ الذي يسعدك.

تضحك الأم، ويضحك الصيني. تقهقه، ثم تقول:

- كل شيء. انظر إلي. إنني لا أملك شيئا، وديوني، مثل رئيس دولة، لا حد لها. يضحكان معا بتوادد بدهي. ويظل الأخ البكر وحيدا.

يقول الصيني:

- سيدتي، بالطبع، لا أستطيع أبدا تعويضك إن أصبحت ابنتكم زوجة لي...

- كم كان سيكون التعويض، قل ذلك سيدي... من أجل لا شيء...

- لا أعرف، سيدتي، كان سيكون تعويضا عظيما. بين الأثاث، والذهب، والأسهم المصرفية. لكن مع ذلك أستطيع مساعدتك - يضحك - اعذريني.

تبدو الأم مهتمة بكلام الصيني:

- لكن كيف ذلك، سيدي؟

يقول الصيني وهو يبتسم:

- أستطيع أن أكذب. أن أسرق والدي.

من بعيد، يلعنه الأخ بصوت غير مسموع.

- قــذر... (يوجه الــكلام إلى أمه) لا تدعيــه يتملقك، هذا القذر... إنه يتلاعب بك، وأنت لا ترين ذلك...

لا الأم ولا الصينـــي يهتمان بما يقوله الأخ البكر. الأم منغمرة في اكتشــاف الصيني، عشــيق ابنتها الصغيرة. تنسى ظروفها الصعبة ومآسيها وتبتسم له، منفصلة عن قدرها لتكتشف قصة ووجود هذا الصيني الســاخر واللطيف. هذه الزيارة تخلب لبها، والحياة تفتنها. كما لو كانت موجودة في صالون فاخر، تقول:

- سيدي... ليس لوالدك من وريث غيرك إذن؟

- لا، لكننـــي الابن البكر من الزوجة الأولى لوالدي. والقانون الصينـــي يريد أن أكون الوريــث الوحيد للثــروة، لتجنب تبديد الإرث.

تبحث الأم وقد أثارها هذا القانون:

- آه إننـــي أعرف ذلك. نعم. من قبــل... نعم. نعم. ما تقوله صحيح. لا يمكنك تغيير القانون... والتغلب على والدك...

يضحك الصيني بطيبة.

- حتى الفكرة تبعث على الضحك، سيدتي، اعذريني...

- إنهم مرعبون هؤلاء الشيوخ الصينيون. أليس كذلك؟

يبتسم الصيني، يقول إنهم بالفعل مرعبون، لكنهم أيضا كثيرو السخاء أحيانا...

ستستمع الأم كثيرا لهذا الصيني. يقول:

– قد أستطيع قتله، أما محاولة مخادعة القانون، فلا... اعتمدي عليّ، سيدتي، سأساعدك، على كل حال.

يتبادلان النظرات ويبتسمان. يبدو الأخ البكر خائبا.

يدنو الصيني من الأم، ويبتسم لها. يتكلم معها أمام الآخرين الذين لا يعرفهم. تستمع الأم بشغف وبالنظرة العفوية نفسها، كابنتها.

يقول الصيني:

– لن أسرق والدي، سيدتي، ولن أكذب عليه، ولن أقتله. لقد رويت لك أشياء غير حقيقية لأنني كنت أرغب في التعرف عليك... بسببها، هي ابنتك. الحقيقة أن والدي أحيط علما بك، ويريد أن يرسل لك بعض المال بوساطتي. لدي رسالة منه تعدني بذلك. في حالة إذا لم يكن المال كافيا. فسألجأ إلى ما أخبرتك به... تبتسم الأم... لكن بالنسبة إلى والدي، فلن تكون المسألة في كل الحالات، مسألة مال، لكن مسألة وقت، ومصرف... وضمير...

تقول الأم إنها متأكدة من كل ذلك.

يتوقف عن الكلام. ينظر أحدهما إلى الآخر بتأثر. إنها تنظر فيما وراء هذه الابتسامة وما يرتبط بها من يأس لا يلحظ، إلا بالكاد، على محيا وريث ساديك.

– إن تزوجت ابنتكم، سيحرمني والدي من الإرث، وهنا سيدتي، لن تقبلي أن تتزوج ابنتكم برجل فقير وصيني.

تضحك الأم...

– مع ذلك، سيدي، فإنها الحياة... وتناقضاتها...

يضحكان معا من الحياة.

ثم تقول الأم بصوت هامس مخترقة صمتها:

- إنك تحب هذه الطفلة كثيرا....

لا تنتظر الجواب. فعلى شفتي الصيني وفي عينيه تخمن اليأس، والخوف. تقول بصوت خفيض:

- اعذرني....

تنسى الأم حكاية المال.. فداخل انغمار الأم في كل ما يحدث في حياتها، بعث الصيني إلى الطفلة. إن طريقة إنصاته إلى الأم، بشكل خاص، تعكس فضول طفلتها.

تقول الأم بلطف:

- إنك تتكلم الفرنسية جيدا، سيدي.

- شكرا سيدتي. أما أنت، وسأسمح لنفسي أن أقول، لقد كنت جدا رائعة معي.

يصرخ الأخ البكر:

- هذا يكفي الآن.... ستعلم عن طريق أختي بالمبلغ الذي نريده....

يتصرف الصيني كما لو أن الأخ البكر غير موجود على الإطلاق، يصبح بغتة، مرعبا، من شدة الهدوء والنعومة.

تظل الأم هناك، ومن دون أن تقرر ذلك مع الصيني. تسأله:

- هل تعلم ابنتي بكل هذا؟

- أجل. لكنها لا تعلم بعد أنني جئت إلى هنا.

- ماذا ستقول، في نظرك، إذا علمت بهذا....

- لا أعرف سيدتي....

يبتسم الصيني. يقول:

- ســتغضب في البداية. ربما. ثم لن تهتم بذلك....حين تعلم أنك أخذت المال - يبتسم - إن ابنتك ذات أبهة، سيدتي.

بإشراق تقول الأم، وهي سعيدة:

- مع ذلك فما تقوله صحيح، سيدي.

ثم يفترقان.

* * *

إنها الشقة.

إنه الليل.

الطفلة مســتلقية على السرير من دون نوم، وقد عاد الصيني من ساديك.

يتبــادلان النظر مــن دون كلام. يجلس الصيني على الأريكة. لا يجلس بجانب الطفلة. يقول لها: لقد تناولت شــراب الشــوم. أنا ثمل.

يبكي.

تنهــض، وتقول لــه بعض الكلمــات. يبكي، وحيــدا، بعينين مغمضتين.

في الشــارع الســماء ملتمعة، والليل يطل علــى الفجر. لكن الغرفة مازالت معتمة.

يقول:

- قبلك، لم أكن أعرف شــيئا عــن المعاناة.... كنت أظن أنني أعرف.... لكنني لا أعرف شيئا.

يكرر: لا شيء.

برفق تجفف جسده بمنشفة.

تقول له بصوت منخفض، كما لو كانت تكلم نفسها:

- هكذا ستخف حرارتك.... ما تحتاج إليه هو ألا تجفف جسمك....

بهدوء تنهمر دموعه، من دون أن يرغب في ذلك. ثم يشتم الطفلة بحب غامر:

- طفلة بيضاء صغيرة، وجدت في الشارع.... علي أن أحذرها.

يصمت ثم ينظر إليها، يقول من جديد:

- فتاة صغيرة.... هي لا شيء....

تدير وجهها لكي تضحك. يراها ويضحك معها أيضا.

إنها تحميه. تحمله إلى السرير. وهو لا يعرف ما يحدث له، لا يقول شيئا، يفعل كل ما تريده. يروقها ذلك.. تظل هناك سعيدة من دون حراك. يقول:

- لا أستطيع أن أبادلك الحب. كنت أظن أنني أستطيع ذلك. لكنني لا أستطيع.

يجلس القرفصاء، ثم يشرع في الكلام. يقول:

- إنني شخص ميت. أنا يائس. وقد لا أستطيع أن أحب فيما بعد. لن أستطيع ذلك أبدا.

تنظر إليه عن قرب. تبتسم:

- هل تريد ذلك؟

- في هذه اللحظة، نعم، وحتى أحتفظ بكل الحب الذي أكنه لك، حتى بعد رحيلك، وللأبد.

يأخذ وجهها بين يديه. ليبكي.

هذا الوجه يرتعش أحيانا، العينان مغمضتان، والفم متشـــنج. إنه لا ينظر إليها. تقول بنعومة:

- لقد نسيتني.

- إنني أحب الألم. لا أحبك. إنه جســـدي، لم يعد يرغب في تلك التي سترحل.

- أجل، حين تتكلم، فإنني أفهم كل شيء.

يفتح عينيه. ينظر إلى وجه الطفلة.

يناديهـــا بابنتي الصغيرة، طفلتي، ثم يقول أشـــياء بالصينية، تعني الغضب واليأس.

تناديه: أيها الصيني الحقير، المحترم..

يبتعد أحدهما عن الآخر. ويتبادلان النظرات. يقول:

- صحيح. حتى والدي، فإنني أرغب أحيانا في قتله.

يقول أيضا:

- لن يحدث شيء آخر في حياتي غير هذا الحب، حبي لك.

يظلان جامدين. تذرع الشـــقة. تبتعـــد عنه. تتكئ على الباب الثاني «بـــاب الفـــرار»، تختـــبئ عنه. تشـــعر بالخـــوف. تتوقـــف. لا تنظر إلى شيء. مرة أخرى تشعر بهذا النوع من الخوف الذي بـــدأ منذ بضعة أيام ولم تســـتطع التغلب عليـــه، الخوف من أن يقتلها هذا المجهول، مجهول السفر إلى لونغ - هاي.

تخاطبه وهي تذرع الغرفة. تقول:

- ليـــس عليك أن تندم. تذكر أنك قلـــت لي أن أرحل عن أي مكان، وألا أخلص أبدا لأحد.

يقول إنه على الرغم من هذا، فالأمر لم يعد يهمه. كل شيء تم تجاوزه. الكلمة تروق الطفلة لكنها لم تفهم جيدا ما يقصده بهذا التعبير. تجاوز ماذا؟ تسأله. يقول إنه لا يعرف معنى الكلمة، ومع ذلك يتلفظ بها لأنها هي الكلمة الحقيقية.

ظلت هناك تنظر إليه، وتناديه، وتحدثه. ثم استسلمت للنوم على عتبة الباب. بعدها نسي كل شيء عن رعب حياته «السعيدة»، نهض ليبحث عنها عند الباب الآخر، ثم رماها على السرير وركن إلى جانبها، وتكلم، وتكلم، بالصينية، أما هي، فقد نامت أخيرا، ثم استسلم هو كذلك للنوم.

النهر. في البعيد. وانعراجاته بين مزارع الأرز. يأخذ مكان العشيقين.

فوق النهر، يخيم الليل نسبيا. السماء بيضاء بفعل انبلاج النهار.

إنهما نائمان.

أثناء النوم، في تلك الليلة، نادت على الشقيق الصغير باسمه. سمعها الصيني تنطق بالاسم. وقد أخبرها بذلك عندما استيقظت.

لم تجب. عادت إلى عتبة الباب. واستسلمت للنوم.

وهما نائمان. تنادي من جديد على الشقيق الصغير المخذول.

يستيقظ الصيني.

تنظر إليه وهي جالسة على عتبة الباب الآخر. تتعرف عليه بالكاد. تنظر إليه بكل قواها. تقول:

– سيطلع النهار. سأذهب بسيارتك إلى ساديك لرؤية أمي،

إنني أفتقد باولو.

لم يسمع. تقول مرة أخرى:

- أنـــا مـــع رأي والدك. لا أريد البقاء معــك. أريد أن أرحل، للقاء أخي الصغير.

سمع كلامها. يجيبها من أعماق نومه:

- بإمكانك أن تقــولي ما تشــائين. لا يهــمني شيء، الكذب لا يفيد في شيء.

هو لا يتحرك. وهي تظل بعيدة عنه. ثم يستيقظ.

ينظــر أحدهمــا إلى الآخر. تبتعــد عن البــاب وتقترب من النافورة. تنهض، وتذهب لتنام تحت الماء في الحوض.

توجه له الكلام، تقول إنها تحبه إلى الأبد. تظن أنها ســتحبه طوال حياتها، وأنه هو كذلك يحبها وأنهما ضائعان إلى الأبد.

لا يجيب. كما لو أنه لم يسمع شيئا.

عندها تغني بالفيتنامية. يضحك... وتضحك هي أيضا.

تناول ما يكفيه من الأفيــون. وذهب لينام من جديد. يدخن. إنــه هادئ. وهي. ممددة دائما علــى الأرض. العينان مغمضتان الآن، وهـــي ممددة في الحوض. وهو الــذي يتكلم، للمرة الأولى عن قصتهما. يقول:

- صحيــح... كان ذلك على العبــارة... حين فكرت في ذلك الشيء عنك، قلت مع نفسي إنك لن تمكثي مع أي رجل.

- أبدا، مع أي رجل؟

- أبدا.

صمت.

- لماذا خطر لك هذا؟

- لأنك بمجرد أن نظرت إلي أحببتك.

عيناهـا مغمضتان. لا يعرف هل هي نائمة حقا. ينظر إليها. لا، إنها غير نائمة: فتحت عينيها. يدخن الأفيون أمامها، لأول مرة. تقول له:

- لأول مرة تدخن أمامي.

- أفعل ذلك حين أكون تعيسا. مع الأفيون أستطيع تحمل كل شيء. الكل يدخن هنا. حتى الحمالون.

- والنساء أيضا، أعرف هذا.

- في الأوساط الثرية نعم.... لقد كانت أمي تدخن إننا نعرف كيف ندخن. هذا جزء من حضارتنا، البيض لا يعرفون شيئا عن هذا. طريقتهم في تدخين الأفيون تجعلنا نضحك. حين يصبحون مخبولين فيما بعد....

يضحك.

صمت.

ثم يضحكان معا.

تنظر الطفلة إليه، وتستعيد «مجهول العبارة».

- ما تقوم به يشبه مهنة ما، ألا تقوم بأي شيء، معرفة النساء، وتدخين الأفيون، وارتياد النوادي، والمسابح و... الذهاب إلى باريس... ونيويورك، وفلوريدا....

- ألا تقوم بأي شيء هو مهنة، وصعبة جدا.

- ربما هي المهنة الأصعب....

- ربما.

تقترب منه. يداعب شعرها. ينظر إليها. يسأل:

- لم تعرفي والدك أبدا من قبل.

- أحتفظ بصورتين عنه. واحدة في هانوي، والثانية في بنوم - بين، ولا شيء آخر. نعم، أتذكر يوم وفاته.

كانت أمي تنتحب وتصرخ.... قل لي أيضا.... لتصبح غنيا، ولكي لا تقوم بأي شيء وتتحمل ذلك.... يلزم المال لذلك وماذا أيضا.

- أن تكون صينيا - يبتسم - وتلعب الورق أيضا، إنني ألعب الورق كثيرا. حين يخبرك السائق بأنني قد خرجت، فمعنى ذلك أنني ألعب الورق. دائما مع بعض الأشقياء بالليل، من دون لعب لا يمكننا الصمود.

تعود وتقترب منه. تجلس على الأريكة القصبية بالقرب من الحوض.

- في اليوم الأول اعتقدت أنك.... لست فاحش الثراء، لا، بل رجل غني، وأيضا، رجل يمارس الحب كثيرا لكنه خائف. مم. لا أعرف. لم أعرف بعد. لا أحسن التعبير عن ذلك... خائف، في الوقت نفسه، من الموت.... ومن أن يحيا أيضا، أن يحيا حياة ستموت يوما، ومن معرفة ذلك كل لحظة.... خائف أيضا من ألا يحب ربما.... ومن عدم نسيان.... لا أعرف كيف أقول ذلك....

- لا تريدين قول ذلك...

- صحيح. لا أريد أن أقول ذلك.

صمت.

- لا أحد يعرف أن يقول ذلك.

- صحيح.

- ألا أعرف هذا الخوف. في نظرك؟

صمت. تفكر الطفلة.

- لا تعرف إلى أي حد أنت خائف...

صمت. تنظر إليه كما لو كان ذلك لأول مرة. تقول:

- أريد أن أتذكرك دائما، أنت، كلك - تضيف - أتذكرك أنت الذي لا تعرف شيئا عن نفسك...

حين كنت صغيرا، كنت مريضا، ولم تكن تعرف ذلك...

تنظر إليه، تمسك بوجهه بين يديها، وتنظر إليه، تغمض عينيها، ثم تنظر إليه من جديد.

تقول:

- أرى عينيك من وراء جفني.

- أعرف قليلا مما تقولين عني. كيف عرفت؟

- عن طريق أخي الصغير... على ظهره علامة طويلة شبيهة بالتي على ظهرك... منحنية قليلا... فوق ارتسام العمود الفقري، تحت الجلد.

- تقول والدتي إنه الكساح. لقد ذهبت بي عند طبيب شهير بطوكيو.

تدنو منه، تنحني ثم تقبل يده.

- أفضل ألا تحبني.

- أنا لا أحبك. (لحظة زمنية) هذا ما تريدينه؟

تبتسم. ترتعش فجأة، تلعب اللعبة نفسها، وتسأل:

- إنها مجرد فكرة تصوغها... في هذه الحالة...

- ربما.

- من المرعب سماع الكلمات، والتعرف على الصوت الذي ينطق هذه الكلمات...

يضمها بين ذراعيه.

يقول:

- وهذا ما تريدينه؟

- أجل.

يقول الصيني:

- ابحثي مرة أخرى عن سبب خوفي...

- ربما هي مجرد فكرة... شبيهة بفكرة أن تحبني؟

- ربما.

- لأنه بخلاف ذلك...إذا أُعطي كل شيء، ألا يصبح هذا مثل الموت؟

لا تجيب. يواصل.

- أن تكوني مثلي، هذا ما تريدين قوله... أن تعيشي حياة شبيهة بحياتي، فهذا يشبه الموت...

تصرخ بصوت منخفض:

- ... كم هو مزعج هذا الحديث...

صمت. يلح من جديد:

- ثمة سؤال آخر أود أن أطرحه عليك.

لم تقبل ذلك، تقول إنها لا تعرف أن تجيب الناس.

تسأل:

- ألم تحب فتاة بيضاء أخرى غيري؟
- في باريس طبعا. أما هنا فلا.
- هل من المستحيل، هنا، اللقاء بفتيات بيضاوات؟
- يستحيل ذلك نهائيا. لكن هناك الغانيات الفرنسيات.
- لكنهن باهظات الثمن.
- جدا.
- كم؟

يحدق فيها الصيني. تضحك لرؤيته كذلك.

بغتة، يقول لها كاذبا:

- لا أعرف. ربما ألف بياستر.

يشاركها الضحك.

- أريدك أن تقولي لي، ولو مرة واحدة: «جئت إليك لتمنحني بعض المال».

زمن بطيء. تبحث عن السبب. لا تستطيع أن تكذب. لا تستطيع قول ذلك. تقول:

- لا. هذا فيما بعد. لكن في العبارة لم يكن الأمر يتعلق بالمال...

«يتخيل» العبارة، ويقول:

- قولي ذلك إن كان حقيقيا.

تقول ذلك كما يريده:

- على العبارة كنت أراك مسربلا بالذهب، داخل سيارة سوداء من الذهب، بحذاء من الذهب.أظن أنني بسبب ذلك، تطلعت إليك كثيرا، وللتو، لكن لم يكن الأمر بسبب هذا فقط،

أعرف ذلك أيضا. لكنه الذهب ربما، وعلى الرغم من أنك، أنت، الذي كنت أرغب فيه دون أن أعرف.

يضحك الصيني. يقول:

- الذهب كان أنا أيضا...

- لا أعـــرف. لا تعر أهمية لما أقولـــه. لم أعتد على مثل هذا الكلام.

- إننـــي أهتم مـــع ذلك. لكن ليس بما تقولينـــه. بل أهتم بك وبالطريقة التي تتكلمين بها.

تمسك بيده وتنظر إليها، تقبلها. تقول:

- بالنسبة إلي، كانت يداك... هنا ما اعتقدته.

صمـــت. إنه يعرف ذلك. ينظر بعيدا. يبتســـم. فجأة، تصبح اللعبة عنيفة. يصرخ كما لو كان يضربها.

- هل تريدين الخاتم؟

تصرخ الطفلة. تبكي. تصرخ. ولا تأخذ الخاتم.

صمت طويل.

كان الصيني يعـــرف أنها كانت ترغب في الخاتم لتمنحه إلى أمهـــا، بقدر مـــا كانت ترغب في الاقتراب منـــه، وعليها أن تعلم ذلك، الآن، من خلال سؤاله عن الخاتم. يقول:

- انسي ذلك.

- نسيت، لا أحب أبدا شيئا مماثلا. كالماس مثلا. لا نستطيع بيع الماس حين نكون فقراء، لأن الكل يعتقد أننا قمنا بسرقته.

- ماذا تعنين بـ «الكل»؟

- بائعي الماس الصينيين، وغيرهم أيضا. لكن الصينيين على

الخصوص. لقد تعرفت أمي على امرأة شـــابة وفقيرة، كانت قد تلقت ماسة من رجل كهدية، وقد حاولت، لمدة سنتين، بيعها، ولكن مـــن دون فائدة. ما جعلها تعيد الماســـة إلى الرجل الذي عوضها لها بمقدار من المال أقل من قيمتها. لقد اعتقد الرجل أن الماسة التي أُرجعت إليه غير حقيقية، وأنها ربما سرقتها من رجل آخر. لهذا تنصحني أمي بألا أقبل إلا بالمال كهدية بدل الماس.

يضمها الصيني إليه. يقول:

– وأنت هل يبدو عليك أنك فقيرة؟

صمت. تسأل:

– هل هذا الخاتم باهظ الثمن؟

– باهظ جدا.

– باهظ جدا، أم باهظ فقط؟

– لا أعرف.

يتأملان الخاتم الأجنبي. ثم يقول الصيني:

– قد يبلغ ثمنه عشـــرات الآلاف من البياسترات... ما أعرفه هو أن الماســـة كانت تملكها أمـــي. كانت موجودة مع مهر الزواج. والدي أطر الماســـة لدى صانع مجوهـــرات من باريس ليخصني بهـــا، بعد وفاتها، لقد جاء الجواهري إلى الماندشـــوري ليتســـلم الماسة، ثم عاد مرة أخرى إلى الماندشوري لتسليم الخاتم.

– هل تهتم بذلك؟

لا يتكلم. يتركها. إنه يحبها. تقهقه فجأة. تقول:

– صحيـــح. إن قطعة مـــن الماس لا يمكن إرســـالها في طرد بريدي صغير جدا...

تضحــك. تتفجر ضاحكة. تقول إنها ترى الماســة وحيدة في شــاحنة كبيرة مصفحة. تقول إن نقل ماسة غير ممكن، حتى إن كانت «كبيرة»

تكون سعيدة دائما حين تضحك. إنها ضحوكة مثلي حين كنت في سنها، تقول الأم.

يقول:

- أعرف أنه ليس الماس ما رأيته من قبل.

- نعــم، لقد رأيته، لكــن منفصلا عنك. علــى أي حال فقد كنت أعرف ما هو الماس. شــممته ووجدت رائحته زكية مثلك... البخور، قماش الحرير الهندي، وماء الكولونيا. بالنســبة إلي، لم أفكر في أن أمتلكــه. أظن أننا نكون فقراء منذ الولادة. حتى لو أصبحت ثرية ذات يوم، فســتظل عقليتــي الرديئة عقلية فقيرة، وجســدي، ووجهي، سيظلان جســد ووجه فقيرة، طوال حياتي سأظل كذلك، مثل أمي ذات الهيئة الفقيرة بشكل لا يصدق.

إنــه لا يرى ذلك، بالنســبة إليه، إن لها هيئــة مزارعة. إنها جميلة مثل مزارعة جميلة.

تنظر إليه مرة أخرى تلك النظرة المتفحصة. ثم تقول:

- لكن أنت، لك هيئة ثري. ما هي هيئة خطيبتك؟

- لا شيء يميزها. ربما لها هيئة ثرية. مثلي.

تمســك الطفلة باليد التي تحمل الماســة، تنظر إلى الخاتم، وإلى الماسة.

تخفض نظرها. ينظر إليها، ثم يقول:

- أعيدي ما قلته لي قبل قليل.

تعيد عليه.

- لقــد رغبت فيك للتو... بســرعة وبقوة، تلك اللحظة. هذا صحيح.

- مثل أخيك الصغير...

تفكر ثم تقول:

- كيف أعبر عن ذلك... إن أخي الصغير هو أيضا طفلي...

- لم يسبق لأخيك الصغير أن حملك بين يديه.

يقول بصوت هامس إنه أصبح يحب الأخ الصغير.

يوقدان المباخر. يغنيان ويتحدثان.الطفلة تداعبه. تقول:

- أنت أيضا لك بشرة المطر.

- وأخوك الصغير أيضا.

- أجل... نحن الثلاثة، لدينا بشرة المطر.

تصبــح الليالي مضنية. مازالت الحرارة مرتفعة. يلجأ الناس إلى الزوارق في القنــوات للنوم. من بعيد تتراءى أرصفة مكاتب الإرساليات البحرية.

هما أيضا يذهبان إلى هناك. أحيانا يقود الصيني الســيارة. فيستبد الخوف بالسائق والطفلة.

يقول الصيني وهو يجذب الطفلة نحوه:

- أحبك أيضا مثل طفلتي.

الشقة.

تخبر الطفلة الصيني بأن طلب ترحيل الأخ البكر الذي قدمته الأم قد صودق عليه أخيرا.

- متى سيكون الترحيل؟

- قريبا. لا أعرف بالضبط.
- لقد علمت، بواسطة والدي، أن أخاك يوجد على لائحة الرحلات الأولى.
- إن والدك يعرف كل شيء...
- أجل.... إنه يعلم أيضا كل شيء يتعلق بك.
- كل ما يتعلق بي. صحيح؟
- أجل.
- كيف يعرف ذلك؟
- إنه يؤدي. يشتري. يقدم النقود... هذا مضحك جدا.
- إنه مقزز...
- من دون شك. الأمر لا يهمني...إنه يقدم النقود، حتى إن كان ذلك غير ضروري. هذا موجود في دمه.

تجهش في البكاء. يأخذ وجهها بين يديه. تقول وهي ترتعش:

- لقد رافقتك لتمنحني بعض المال، حتى إن لم أعلم بذلك.

يضمها إليه أكثر. يشعر بالخوف ذاته يتعاظم داخله. يقول:

- أريد أن أقول لك شيئا... من الصعب قول ذلك... سأمنحك بعض المال من أجل أمك. من طرف والدي. وقد أخبرتها بذلك.

تبدو الطفلة كأنها لم تسمع شيئا. لكنها تنتفض بعنف. الطفلة لا تعلم بزيارة الصيني للأم. تقول:

- هذا مستحيل، فأمي لا تعرف حتى بوجودك.

بفظاظة يعود التخاطب بميم الجمع. لا يجيب.

تبدو متشـــككة، بغتة، والدموع في عينيها. تنظر إليه كمجرم. تقول:

- هل تحريت عن عائلتي؟

- أجل. لقد ذهبت إلى ســـاديك بطلب من والدي لرؤية أمك. والتحدث معها، والتحري عن بؤس عائلتك.

بالنسبة إليها، هذا الأمر مؤلم ومفعم بالحب. يقول:

- صحيح أن أفراد عائلتك لم يعودوا يملكون شـــيئا. الشـــيء الوحيد الذي بقي لديهم ليبيعوه هو أنت. وأنت لست للبيع.

أخوك البكر راسل والدي. وأمك حاولت لقائي. ووالدي طلب مني رؤيتهما. فالتقيت بهما.

تنتصب الطفلة واقفة. تبتعد عنه أكثر. يصبح ذلك الشخص الذي التقى بالأم، في حالة مزرية، في فحش التعاسة.

تقول:

- كيف تجاسرت...؟

بحذر، وبلطف شديد، يقول الصيني:

- إنها تعرف كل شيء، منذ بداية قصتنا. أولا، هي مرعوبة من فكرة زواج ابنتها من صيني. ثم إنها كانت تتمنى هذا الزواج.

لقـــد تحدثنا كثيرا. وما كنت أريده هو ألا تبقى آملة في هذا الـــزواج بتاتا. وأن تطرد هذه الفكرة من رأســـها إلى الأبد. لقد ذكرتها بما يقوله القانون الصيني في هذا الصدد. وحدثتها عن والدي الذي يفضل أن أموت على أن أخرق هذا القانون.

تجهش الطفلة في البكاء. تقول: وقد رفعت الكلفة بينهما من جديد.

- سـأخبرها بأنني أنا التي رفضت الزواج منك...وبأي ثمن. وبأن الزواج لا يهمني... بتاتا. لعل هذا يجعلها أقل ذلا.

- لم تكن تشعر بالمهانة، أقسم لك، لقد ضحكنا معا حتى...

- على أي شيء؟

- على القانون الصيني. وعلى والدي.

- إن أمي تحب الضحك...

- أجـل، لقد أخبرتها بأنني علمت بواسـطة والدي، بترحيل ابنها، وقد قالت لي: مائتان وخمسون بياسترا.

يضحك الصيني والطفلة معا. ثـم تجهش الطفلة في البكاء وهي تبتسم. ثم يتوقف الصيني عن الضحك، ينظر إلى الطفلة، ويقول:

- أمك تجعل محدثها يحبك، يحب ابنتها.

تتكلم الطفلة فجأة، كشخص كبير في السن:

- يجب إعطاؤها الكثير... هناك مصاريف يتطلبها السـفر في سـفينة في ظروف جيدة... ثمن الرحلة مؤدى مسـبقا، لكن هذا لا يكفي...هناك ملابس الشتاء... الداخلية، رسوم التسجيل بالمدرسة، الكهرباء... والدروس...

ينهـض ليأخذ سـترته قرب الحمام، يخـرج من أحد جيوب السترة ظرفا، يضعه على الطاولة. يقول:

- مـا المبلـغ المطلـوب؟ لا أحمل معـي الآن إلا خمسـمائة بياستر.

- خمسمائة بياستر الآن... حسنا لماذا لا؟

يضع الظرف على الطاولة.

تنزع ثيابها. وبحركة واحدة ترفع تنورتها. يقول بانفعال:
- ماذا تفعلين؟

تقول إنها ستأخذ حماما مرة أخرى. ثم تضيف أنها مطمئنة في نهاية الأمر، من أجل الأم.

تقول إنها ستعطي الظرف إلى طان ليخفيه في مكان لا يعرفه سواه. وإنها لا يمكنها أن تعطيه إلى أمها، لأنه سيتعرض للسرقة من طرف الأخ البكر، ما سيجعل الأم تعيسة.

يقول الصيني:
- سيسرق ابنها المبلغ، أم ستمنحه هي لابنها؟
- تماما، لا فرق.
- هل تقسمين على أن طان سيحتفظ بالمال...؟
- أقسم لك.

ترتدي الطفلة ملابسها بعد أن استحمت. تقول إنها ستعود إلى الداخلية.
- لماذا؟
- أريد أن أمكث وحدي.
- لا. ستبقين معي. سنذهب إلى الحانات على ضفاف القنوات وسنتناول شراب الشوم، ونتناول أكلة «نوم - نيونغ». فهناك تهيئها النساء بأنفسهن، أما شراب الشوم، فيجلب من القرية.
- بعد ذلك، هل يمكنني العودة إلى الداخلية؟
- لا.

تضحك. تقول:

- سأعود مع ذلك، فيما بعد.

يشـــاركها الضحك.. الحانات الصغيرة على ضفاف القنوات. وشراب الشوم المحلي... لا أحد يستطيع رفض ذلك، فضلا عن الميناء بالليل.

يذهبان مرة أخــرى في اتجاه «الإرســاليات البحرية». على المقعد الخلفي، يضمها إليه.

إنه منغمر في عمق حــب الطفلة النحيفة، الضامرة الصدر، غير المتوقعة، والقاسية.

يتوقفان أمام إحدى السفن وهي على أهبة الإقلاع.

هناك على أحد الأرصفة، مرقص مفتوح.

فتيات بيضــاوات يرقصن مع الضباط. غير مجملات كثيرا، ويبدون وقورات.

لا يتكلــم الراقصــون بعض مع بعضهــم، كما لــو أن قانونا يمنعهم من ذلك. خصوصا النســاء، فهن جادات. إنهن راقصات محترفات، يبتســمن كالراهبات في جو من الرضى العام. إنهن بتنورات فاتحة اللون مزينة برسوم أزهار لا تكاد ترى.

بافتتان، تنظر الطفلة إلى كل هذا... حين وصولهما إلى هذا المكان من المينــاء، تتخلص من الصيني لتنظر إلى حفل القنطرة الراقص والشاحب.

يتــردد الصيني، قبــل أن يتبع الطفلة فـــي الاتجاه الذي تريده.

ظلت الطفلة تجهل لمدة طويلة ســبب هذا الافتتان، مثلما كان الصيني يجهل ذلك بــدوره. وذات يوم تذكرت ذلك: لقد

استعادت الصورة كاملة، للحفل الراقص الشاحب الذي لا يتكلم فيه راقصو وراقصات الجسر، مثلما هو الأمر في أحد الكتب الذي لم تنته من كتابته، بعد، إنه رهن الكتابة، كل صباح، وكل يوم من حياتها منذ سنوات وسنوات. لقد أعلنت عن كتابته - وحتى هذه اللحظة بالذات، وحين تصبح الذاكرة واضحة وشفافة - داخل غابة المكتوب الذي سيأتي(*).

يعبران المدينة المسهدة على امتدادها، المرهقة بحرارة الليل دون هبة ريح.

تغفو. الصيني يستمع إلى السائق وهو يردد إحدى أغاني المانشوري، المتوحشة والناعمة، الصارخة والهامسة، في الوقت نفسه.

وككل ليلة، ثمة موسيقى لبعض الأغاني الصينية، تتناهى من بعيد. بعد ذلك، وفي آخر الليل، يسمع الصوت الخفيض لقطارات «دوك إلنغتون» التي تعبر الشارع، ممزوجا بصوت أبواب الغرف المصفوقة. بعد ذلك، وفي وقت جد متأخر من الليل، يأتي الصوت الهادئ والمتوحد، لهذا الفالس اليائس لبداية قصة الحب.

(سينما عدن) بسايغون.

السائق أمام الثانوية.

إنه ينتظر حتى إغلاق البوابة.

والطفلة لم تأت.

يغادر المكان. ينحدر في شارع كاتينات. هناك يرى الطفلة مع

(*) يتعلق الأمر برواية «إميلي ل».

شـــاب أبيض قد يكون أخاها، وشـــخص آخر من الأهالي وسيم جدا، وبلباس شبيه بلباس الأخ. يخرجون لتوهم من قاعة «سينما عدن».

ينطلق السائق من جديد قاصدا شولين لإخبار سيده.

الصيني ينتظر في الشقة.

والســـائق يروي له ما رآه قرب قاعة السينما، لقد أخبرته بذلك، وبأن الشـــابين اللذين كانا يرافقانها، أحدهما هو طان سائق والدتها، والآخر هو شقيقها باولو.

يذهبان للالتحاق بهم.

تخرج الطفلة من السينما برفقة طان وأخيها الصغير.

تتوجه رأسا، وبشكل طبيعي، نحو السيارة السوداء. تبتسم للصيني. تقول:

– لقد وصـــل أفراد عائلتي من فين- لونـــغ... ذهبت إلى الســـينما مع طان وباولـــو، وقد أبلغتهمـــا دعوتك إلى مطعم شولين.

تضحك. يضحك بدوره. يختفي الخوف. يلقي الأخ الصغير وطـــان التحية علـــى الصيني. لا يبدو علـــى الأخ الصغير أنه تعرف على الصيني، لكنه حياه مع ذلك.

إنـــه ينظر إلى هذا الصيني كمـــا ينظر الأطفال. ولا يفهم لماذا ينظر الصيني إليه طويلا. لقد نســـي أنه سبق له أن رآه بشوارع «ساديك». أما طان، فقد تعرف عليه.

تقول الطفلة إنها ظنت أن فيلم «الملاك الأزرق» لم يعجبها، لكنها ليست متأكدة من ذلك.

تقول أيضا إن الأم والأخ البكر قد وصلا في سيارة B12(*).

لا يلقي الأخ البكر التحية على الصيني. بينما تبتسم له الأم: طاب يومك سيدي. كيف حالك؟

الصيني منفعل لرؤية المرأة من جديد برفقة ابنتها. يصعد الأخ الأصغر، والأخ البكر إلى السيارة B12.

يقول الصيني مبتسما:

– حين يكونون موجودين، فأنت لا تحبينني.

تمسك بيده، تقبلها. تقول:

– لا يمكنني أن أعرف. أردت أن تراهم ولو لمرة واحدة في حياتك. صحيح، ربما، فحضورهم يمنعني من رؤيتك.

المطعم الصيني.

هو المطعم نفسه الذي ذهبت إليه الطفلة برفقة الصيني، أول أمسية في قصتهما. إنه المكان الذي لا موسيقى فيه. ضجيج القاعة المركزية ليس مصما للآذان.

يقف النادل، يسأل: هل ترغبون في تناول مشروب فاتح للشهية.

يطلبون ثلاث قنينات من ماء مارتيل بيريي، وقنينة من كحول الأرز.

لا كلام. لا أحد يتكلم، إنه الصمت. لا يفاجئه ذلك ولا يحرجه.

تصل الطلبات. صمت مطبق. لا أحد يبادر ويتكلم. هكذا.

(*) سيارة B12 ليست هي «انهيار» رواية «حاجز ضد المحيط الهادئ». هنا، هي متعبة، حتما، لكنها لا تفرقع، ولا تملأ الشوارع دخانا... إنها ليست موضوع فضول.

ثمـــة، وعلى العكس، شـــعور مفاجئ بالراحـــة... يهيمن على الجميع.

يطلب الأخ البكر زجاجة أخرى من مارتيل بيريي.

الأم، لم تلمس ما يوجد أمامها. فقد ناولت ذلك لابنها البكر. لا أحد تفاجئه المناورة الأمومية.

طلب جماعي للأطباق. بط مليّك، حســـاء صيني من زعانف القـــرش، فطائر مـــن عجينة الجمبري. إن المعايـــر الوحيدة في العائلة هي الأطبـــاق «المزكاة من طرف المطعم». والمرتفعة الثمن بطبيعة الحال.

تقرأ الأم قائمة الطعام. تصرخ بصوت كتيم: «آه... إن الأسعار باهظة». لا أحد يرد...

بعد ذلك تحـــاول الأم، بطريقة مهذبـــة، ومألوفة، الكلام مع الصيني:

– يبدو أنك درست بباريس، سيدي.

تتبادل الأم مع الصيني ابتســـامة ساخرة كما لو أنهما تعارفا من قبل.

يجيب الصيني الأم مقلدا طريقتها في الكلام:

– معنى ذلك... أنه... سيدي...

– إنه مثلنا إذن. يقول الأخ البكر.

صمت.

يضحك الأخ البكر. يضحك باولو وطان أيضا.

يوجه الصيني كلامه إلى الأخ البكر:

– هل مازلت لا تعمل، لا تقوم بشيء...؟

- نعم: تعاسة عائلتي، وهذا ليس قليلا.

يضحك الصيني بشكل طبيعي. الكل يضحك. الأم تضحك سعيدة بأن يكون لها هذا الابن «النبيه». يضحك باولو وطان أيضا.

يسأل الصيني:

- هذا شيء صعب؟

- لا يوهب لكل الناس...

لا أحد يضحك، باستثناء الصيني والأم.

أما الطفلة. فتنظر إليهما، إلى أمها وحبيبها، القادمين الجديدين من قصتها.

يقول الأخ البكر للأم بصوت مرتفع:

- ليس سيئا هذا الشخص، إنه يدافع عن نفسه.

تصل الأطباق، وتمتد الأيدي. يقترح الصيني على الأم أن يقدم إليها الطعام.

يتناولون الطعام في صمت. يأكلون «بمبالغة». يأكلون بطريقة «متشابهة»، هم الأربعة، بمن فيهم الطفلة.

ينتبه الصيني إلى نظرة الطفلة إليهم، إلى هذه العائلة، نظرة حب وفرح، وهم خارج البيت، بيت ساديك، وخارج الموقع، منطلقين في الشوارع، معرضين لكل النظرات، وهم يتلذذون بالمشروبات الممزوجة بشراب السكر.

تبتسم الأم للحياة. تتكلم. تقول:

- شيء ممتع أن أراهم يأكلون.

الأم تتكلم «لتتكلم». لكي لا تقول شيئا. إنها سعيدة. تقول

أي شيء. إنهما ثرثارتان، كلتاهما، بالطريقة نفسها، وبلا نهاية. ثرثارتان بلا حدود. بانتشاء، ينظر الصيني إليها، هي وابنتها التي تشبهها. تقول الأم:

– هذا مطعم رائع، علينا أخذ عنوانه.

لا أحد يضحك. لا الصيني، ولا طان، ولا الأخ البكر. يتناول الصيني قلما، ويكتب العنوان على إحدى قوائم الطعام، ويقدمها إلى الأم. تقول الأم:

– شكرا سيدي. أرى أنه مطعم جيد جدا، وأفضل من كل مطاعم المنطقة، تلك التي تقدم نفسها بأنها هي الأفضل في الهند – الصينية، لأنها ليست «قليلة النزاهة» على الطريقة الفرنسية إطلاقا.

الكل ينهش ما أمامه من طعام. حتى الصيني الذي لم يأكل شيئا بدأ ينهش هو كذلك. طلب هو الآخر الكمبري المشوي وراح يلتهمه. يطلب الآخرون، في الوقت نفسه، الكمبري المشوي، ثم يلتهمونه. وفي الأخير، لا يحاول أحد الكلام. ينظرون بشغف إلى ما يقدم لهم... وينتظرون «البقية»، يساعدهم في ذلك كحول الأرز، إنهم يشعرون بالسعادة. يشربون. تشرب الأم أيضا، تقول إنها تحب هذا، شراب الشوم – شوم. إنها في العشرين من عمرها. حين حضرت التحلية، كانت الأم تغفو. يبالغ الأبناء في تناول التحلية. يشرب الأخ البكر كأسا ويبكي هذه المرة. الصيني يشرب أكثر من الأخ الصغير. بينما تشرب الفتاة من كأس الصيني. الأم لم تعد تعرف ما تشربه. إنها تضحك، وحدها. وهي سعيدة هذا المساء مثل الآخرين.

وسط كل هذا، يتأمل الصيني الطفلة وهي سعيدة مثله.

فجـأة، ينهض الأخ البكـر. يخاطب الجميع بلهجة السـيد. يقول:

- إذن... ليس هذا كل شيء، ماذا يحدث الآن؟

تقفز الأم وقد اسـتيقظت، مما أضحـك الجميع، بمن فيهم طان، وتسأل عما يجري...

يقـول الأخ البكر ضاحـكا، إنهـم سـيذهبون جميعهم إلى «الشلال».

هيا بسرعة...

تقول الأم ضاحكة بنفس طريقة ابنها:

- إنها الحفلة. مرحى بالحياة الجميلة...

الطفلة، الصيني وطان وباولو، جميعهم، مسرورون. يتوجهون كلهم إلى «الشلال».

يطلب الصيني بسرية تامة، وبلغة صينية «صافية جدا»، فاتورة الحساب، تُقدَّم إليه في صحن. يتناول الصيني أوراقا نقدية من فئة العشـرة بياسـترات ويضع في الصحن ثماني ورقات. يخيم الصمت. تتبادل الأم النظرات مع الأخ البكر.

الـكل يعد فـي ذهنه المبلغ الـذي أداه الصيني، من خلال ما تبقى في الصحن من بياسترات. الطفلة تعرف ما يحصل وتشرع في الضحك.الأم على وشـك أن تصاب بضحك هسـتيري أمام هذا المبلغ الباهظ. تصرخ بصوت منخفض:

«سـبعة وستون بياسترا» ثم تنفجر ضاحكة «أوه. أوه»، لتعدي الأبناء بضحكتها التي لا تتوقف.

يخرجون من المطعم. يسيرون في اتجاه السيارات.

الطفلة والصيني يضحكان.

– إنهم مجرد أطفال... بمن فيهم الأخ البكر.

– إنهم الأطفال الأهم في حياتي، والأكثر غرابة بالنسبة إليّ. الأكثر جنونا، والأكثر رعبا. لكنهم في الوقت نفسه، هم من يجعلونني أضحك أكثر. أخي البكر، أنسى أحيانا، ولا أستطيع تصديق ما هو عليه، إلا حين أخاف من أن يقتل باولو. بالنسبة إلي حين يكون في المحششة طوال الليل، لا يهمني أمره حتى إن مات.

تسأل الطفلة: هل تختلف الأمور لدى العائلات التي لا يوجد فيها الأب؟

يقول الصيني إن الأمر متشابه، ويضيف:

– حتى في العائلات التي يكون فيها الأب حاضرا، ، وحتى حين يكون الأب هو الأقوى، والأكثر رعبا، فإنه دائما، موضوع شرور وسخرية أبنائه.

فجأة، تقول الطفلة، وهي تتمالك نفسها كي لا تبكي:

إنها نسيت أنها المرة الأخيرة في حياتها، ربما، التي يأتي فيها بييرمن سايغون.

الصيني هو من يخبرها بتاريخ سفر الأخ، الساعة، ورقم الرصيف.

تقول الطفلة إن وحشية الأخ البكر تجاه باولو البكر كانت تتكرر أكثر فأكثر وبلا سبب. لقد كان يقول هذا: بمجرد أن أراه تتملكني الرغبة في قتله. لا يستطيع أن يمنع نفسه من ضربه،

وإهانته. وقد قال طان ذلك لأمي، إذا لم يرحل إلى فرنسا، فالأخ الأصغر إما أن يقتله اليأس وإما أن يقتله بيير، أخوه. حتى طان شعر بالخوف على نفسه، وعلى الأم... والأخت الصغيرة، هل شعرت بالخوف؟ يسأل الصيني. تقول: أما أنا، فلا.

مرة، سأل الصيني طان عن رأيه، فقال: لا، بالنسبة إليها هي، لن تخاف من أي شيء.

تدنو الطفلة من الصيني. وحتى تقول ذلك، تخفي وجهها بيدها:

– هذا ما يجعلنا نحبه، على أي حال، إنه لا يعرف أنه مجرم بالولادة، ولن يعرف ذلك أبدا، حتى لو قُتل باولو.

يتكلمان عن باولو. يرى أنه وسيم جدا، وطان أيضا، يقول إنهما متشابهان كشقيقين.

يبدو أنها لم تسمع كلامه، تقول:

– بعد «الشلال»، سنذهب لجلب المال. سأعود معهم إلى فندق شارنر. كلما جاءت أمي إلى سايغون أذهب لأنام معها هناك، ونتبادل الحديث معا. منذ أن كنت صغيرة...

– عن ماذا؟

– عن الحياة (تبتسم) عن موتها (تبتسم) مثلك أنت مع أمك بعد قصة فتاة كانتون.

– أمك تعرف أشياء كثيرة.

لا، تقول الطفلة، لا، على العكس، فهي لا تعرف شيئا. تعرف كل شيء، ولا شيء. إنها تعرف أشياء بينها وبينه. نحن لا نعرف، لا هي ولا نحن... أبناءها.

إنها مازالت تعرف ربما أسماء القرى في شمال فرنسا. مثل «فروج»، «بونيير»، «دولونس»، وأسماء بعض المدن أيضا مثل «دانكرك» التي كانت أول مدينة تعنى بها كمعلمة، وتتزوج فيها أول مرة بمفتش للتعليم الابتدائي.

تقع «الشلال» فوق أحد الأنهار التي تصب فيها بعض الينابيع. في ساحة متوحشة في ضواحي سايغون... إنهم كلهم على خشبة المرقص فوق الينابيع ذات الطراوة المنعشة. لا يوجد أحد بعد. باستثناء فتاتين خلاسيتين تجلسان وراء البار في انتظار الزبائن. بمجرد دخول الزبائن، تنطلق الموسيقى ويأتي نادل فيتنامي ليأخذ الطلبات.

كل العاملين بالمرقص يرتدون الزي الأبيض.

الصيني والفتاة يرقصان معا.

ينظر الأخ البكر إليهما مستهزئا ساخرا.

تعود اللعنة من جديد. إنها هنا، في ضحكته الفاحشة والمصطنعة.

يسأل الصيني الطفلة:

- ما الذي يضحكه؟

- أن أرقص معك.

تشرع الطفلة والصيني في الضحك معا هما أيضا.

ثم يتغير كل شيء. تتحول ضحكة الأخ البكر إلى ضحكة زائفة، قاسية. يقول، بل يصرخ:

- اعذروني، هذا مثير للأعصاب. لا أستطيع منع نفسي... إنكما غير متلائمين، غير منسجمين... ولا أستطيع أن أمنع

نفسي من الهزل.

يتـــرك الصيني الطفلة. يعبر حلبـــة الرقص. يتقدم نحو الأخ البكـــر الذي يجلس بجـــوار الأم. يدنو منه. يحدق في قســـمات وجهه. قسمة قسمة، كما لو كان شديد الاهتمام بها.

يشعر الأخ البكر بالرعب.

يقول الصيني بهدوء، ولطف، وهو يبتسم:

- لا أريـــد شـــيئا... أما بالنســـبة إلـــى العراك، فأنـــا دائما مستعد.

يضحك الصيني:

- لقد مارست رياضة الكونغ - فو. إنني أعلم بذلك مسبقا.

تشعر الأم بالرعب أيضا. تصرخ:

- لا تهتم به سيدي، إنه ثمل...

يزداد خوف الأخ البكر.

- أليس لي الحق في الضحك؟ أم ماذا؟

يضحك الصيني:

- لا.

- ما الذي يزعجك في هذا الضحك...؟

يبحث الصيني عن الكلمة الملائمة. لا يعثر عليها.

يقول، ربما هذه الكلمة لا وجود لها. ثم يجدها:

- زائفة. إنها ضحكة زائفة. إنها الكلمة المناسبة: زائفة. إنك الوحيد من يعتقد أنه يضحك..لكن على العكس.

ينهض الأخ. يقصد الباب، يدعو إحدى الخلاسيات للرقص. ولا يسمع ما يقوله الصيني الذي يتكلم مع بيير.

يظل الأخ البكر واقفا بجانب المقعد دون الاقتراب من الصيني يجلس من جديد، ويقول بصوت منخفض:

- ماذا يحسب هذا الشخص نفسه...؟

يواصل الصيني الرقص مع الطفلة.

إنهما يرقصان.

ينتهي الرقص.

يقصـــد الابـــن البكر البار. يطلب كأســـا من شـــراب مارتيل بيريي.

يجلس الأخ بعيدا عن الصيني. يجلس الصيني قرب الأم التي مازالت تشعر بالخوف. تسأله وهي ترتعش:

- هل صحيح أنك مارست المصارعة الصينية، سيدي؟

يضحك الصيني، يقول:

- أوه، أبدا. يا سيدتي. لا يمكنك أن تتصوري... إنني لم أقم بذلك مطلقا. لقد قمت بعكس ذلك، سيدتي...

تبتسم الأم، وتقول:

- شكرا سيدي، شكرا...

وتضيف:

- هل صحيح أن كل الأشـــخاص الأغنياء في الصين يقومون بذلك؟

لا يعرف الصيني، ولا يســـمع كلام الأم. ينظر إلى الابن البكر مفتتنا. يقول:

- غريـــب. إن ابنـــك يغـــري بـــأن يضـــرب... اعذريني على ذلك...

تدنـــو الأم من الصيني، تقول بصوت خفيض إنها تعرف ذلك، وإنه مصيبة حقيقية. تضيف:

- لقد أخبرتك ابنتي بذلك...اعذرني، سيدي، لم ألقن أبنائي التربية اللازمة. أنا الملومة.

تنظر الأم إلى الابن وراء البار، تقول إنها ستأخذه إلى الفندق، فهو ثمل.

يبتسم الصيني. يقول:

- أنـــا الذي أعتذر لك ســـيدتي... كان علـــي ألا أرد عليه... لكنني لم أستطع ذلك. لا تغادري بسبب ذلك...

- شكرا، سيدي. أعرف ما تقوله، إنه ولد يستحق الضرب.

- سيئ الطبع، ربما. أليس كذلك؟

تتردد الأم ثم تقول:

- أجل، قد يكون كذلك، ربما. لكنه فظ على الخصوص، هذا هو المخيف. الفظاظة، وهذه الرغبة في الإيذاء، إنه شيء غريب، وكيف يتقن فعل ذلك، والذكاء الذي يملكه لفعل ذلك الشر.

تبدو الأم منشغلة البال. تقول:

- في الفرنسية نسمي ذلك ذكاء الشيطان.

يقول الصيني:

- في الصين نقول: ذكاء الشياطين، والأرواح الشريرة.

- الأمر متشابه، سيدي.

- أنا متفق معك، سيدتي.

ثم ينظر الصيني طويلا إلى الأم التي يتملكها الخوف. تستفهم عن ذلك. يقول الصيني:

- أريدك أن تخبريني بالحقيقة، سيدتي، بخصوص ابنتك الصغيرة... هل سبق لابنك أن قام بضربها في بعض الأحيان...؟

مرتعبة تنوح الأم بصوت غير مسموع. لكن الابن البكر لم يسمع ذلك. تتردد الأم،

تنظر طويلا إلى الصيني.

وتجيب:

- لا أنا التي قمت بذلك، سيدي، لأنني كنت أخاف أن يقتلها.

يبتسم الصيني للأم.

- بأمر من ابنك البكر؟

- ... إن شئت. لكن هذا ليس بالأمر البسيط... من أجل حبه، ومن أجل إرضائه... ومن أجل ألا أشعر بأنه مخطئ...

تجهش الأم باكية. يجلس الابن بعيدا وقد فطن لشيء ما. يتقدم نحوهما... يتوقف بمجرد أن ينظر الصيني إليه. لا تهتم الأم، وتسأل الصيني بصوت هامس: هل حدثته «الصغيرة» عن هذا؟

ينفي الصيني ذلك، أبدا لم تحدثه، وأنه تكهن بذلك هذا المساء، وأنه كان يخامره الشك من قبل، بسبب خوف ما، خوف طفولي، لم يكن يبارح الطفلة أبدا. نوع من الريبة الدائمة والحذر... من كل شيء، من الرعب، والظلمة، والمتسولين، والبحر... ومن الصينيين- تبتسم الأم- ومني. ومن كل شيء.

تبكي الأم في تكتم.

ينظر الصيني إلى الابن بموضوعية بديهية. ينظر إلى وسامة الوجه. العناية بالتزين، والأناقة، يسأل الأم وهو لا يفارق الابن بنظره، ما هي الكلمة التي يستعملها الابن. تقول: كانت الكلمة هي «ترويض»، وأيضا وبالخصوص، كلمة، «ضائعة»إذا لم يقوما بشيء، هي وهو، فالصغيرة ستضيع... وأنه متأكد من ذلك، ومن أنها» ستذهب» مع جميع الرجال...

- هل صدقتها، سيدتي...؟

- ولاأزال أصدقها، سيدي.

تنظر إليه.

- وأنت سيدي...؟

- سيدتي، إنني أصدقها منذ أول يوم. منذ رأيتها على العبارة وأصبحت أحبها.

- يبتسمان من خلال الدموع. يقول الصيني:

- حتى وهي ضائعة، سأظل أحبها طيلة حياتي.

يسأل أيضا:

- كم دام الضرب...

- حتى ذلك اليوم الذي رآنا فيه باولو، بثلاثتنا، ابنيّ وأنا، وقد أغلقنا علينا الغرفة مع الصغيرة. لم يتحمل ذلك، وارتمى عليه.

تضيف الأم:

- لقد كان ذلك أكبر رعب في حياتي.

يسأل الصيني بصوت هامس:

- شعرت بالخوف على أي واحد من ابنيك، سيدتي؟

تنظـــر الأم إلـــى الصيني، تنهــض لتتصرف، ثــم تجلس من جديد.

يقول الصيني:

- أطلب منك العذر.

تواصل الأم، وتقول:

- عليك أن تعرف سيدي، حتى حب كلب، فهو مقدس. ولدينا هــذا الحق - المقــدس أيضا مثل الحق في الحيــاة - بألا نعير اهتماما لأحد.

يخفض الصيني بصره ويبكي. يقول إنه لن ينسى أبدا، «حتى إن تعلق الأمر بكلب»...

الطفلة ترقص مع طان. تحدثه بصوت منخفض:

- سأمنحك بعد قليل خمسمائة بياستر من أجل أمي. لا تعط النقود للأم. ستخفيها أولا. وإياك أن يعلم بيير بذلك.

يقول طان إنه يعرف أين وكيف.

- حتى ولو قتلني. فلن أكشف عن مكان الخمسمائة بياستر. أنا أقوى منه، منذ أن أصبح مدمنا على التدخين.

و هما يرقصان، يشتم طان شعر الطفلة، يقبلها. لا أحد ينتبه إلى ذلك، لا أفراد العائلة، ولا الصيني. ينظر الصيني إلى الطفلة وهي ترقص مع طان. الغيرة مســتبعدة. حان وقت الافتراق مع الطفلة. إنه ضائع، وحزين. تطالع الأم ألمه. تقول له متوددة:

- إن ابنتي تجعلك تعاني كثيرا، سيدي.

يظــل الابن البكر حيث هو، بجانب الحلبة. ينظر إلى الخطر وقد ابتعد عنه، فالصيني منشغل وشارد. يقول بصوت مرتفع:

- أيها الصيني الحقير.

يبتسم الصيني للأم.

- أجل، سيدتي، إنها تجعلني أعاني أكثر من طاقتي.

الأم، ثملة ولطيفة، تبكي من أجل الصيني.

- هـذا رهيب، سـيدي، إنني أصدقك... إنـك لطيف وأنت تحدثـني عن ابنتي بهذا الصدق... سـنتكلم لليال بأكملها، أنت وأنا، ألا ترى ذلك...

- أجل، سـيدتي، هذا صحيح. سنتكلم عنها، وعنك. (لحظة زمنية). يقول ابنك إنه كان يضربها من أجل مصلحتها. هل هذا ما يعتقده في نظرك؟

- أجل سـيدي، أعرف أن هذا شـيء غريـب. لكنه صحيح. يمكنني أن أقسم لك على ذلك.

يمسك الصيني بيد الأم ويقبلها. يقول:

- من الممكن أنه لاحظ هو أيضا أنها معرضة للخطر...

تندهش الأم. تبكي، ثم تقول:

- الحياة رهيبة، سيدي، ليتك تعرف...

تقول الطفلة بعد أن توقفت عن الرقص مع طان:

- داخـل الظرف توجـد حزمة أخرى معزولـة، بمبلغ مائتي بياستر، إنها لك.

يندهش طان:

- من طرفه؟...

- من طرفه، أجل. لا تحاول أن تفهم.

يلوذ طان بالصمت. ثم يقول:

– سأحتفظ بالمبلغ فيما بعد. للعودة إلى سيام.

يقصد الصيني إحدى الطاولات ويجلس. ليبقى بمفرده، ربما .هو وحيد في المدينة، وفي الحياة أيضا. في قلبه حب هذه الطفلة التي سترحل، مبتعدة عنه، حداد رهيب يجتاح الصيني، والطفلة البيضاء تعرف ذلك.

تنظر إليه، ولأول مرة، تكتشف أن الوحدة كانت دائما هناك، بينها وبينه، تلك الوحدة الصينية، التي كانت تميزه، والتي كانت موطنه الذي يحيط به. كما كانت مكان حبهما.

لقد خامر الطفلة إحساس مسبق بأن هذه القصة، كانت ربما قصة حب.

يذهب الأخ الصغير ليرقص مع فتاة البار الخلاسية.

ينظر طان، أيضا، إلى باولو وهو يرقص مع فتاة رائعة. لم يسبق لباولو أن تعلم الرقص.تخبر الطفلة طان الذي لم يكن يعلم ذلك.

وحدهما، الأم والأخ البكر، يظلان بعيدين عن المشهد. كل منهما ينظر، على حدة، إلى باولو وهو يرقص [*].

يعود الأخ الصغير من الرقص. يدعو أخته لذلك. يرقصان معا. إنهما رائعان: الأخ الصغير يرقص كما لو كان نائما ومن دون أن يعلم أنه يرقص. لا ينظر إلى شقيقته، وشقيقته لا تنظر إليه. يرقصان معا من دون أن يعلما كيف يتم ذلك. لن يرقصا

(*) في حالة الفيلم، فكل شيء سيمر هكذا، عبر النظر: الترابط سيكون هو النظر. هؤلاء الذين ينظرون، سيكونون بدورهم محط نظر آخرين، تلغي الكاميرا التبادل، إنها لا تصور إلا الناس. أي وحدة كل واحد منهم (هنا، يرقص كل واحد بدوره). اللقطات المشتركة، هنا، غير ضرورية، لأن ما هو مشترك هنا، لا وجود له. إنهم أناس وحيدون، و«عزلات» بالمصادفة. الشغف هو الترابط في الفيلم.

أبدا، بهذه الطريقة، طيلة حياتهما. إنهما أميران حين يرقصان، تقول الأم. أحيانا يضحكان، ضحكا خاصا بهما، خبيثا، لا يقلد، ولا أحـــد يســـتطيع أن يعرف ذلك. لا يتلفظـــان بكلمة. يكفيهما النظرليضحكا معا. الكل ينظر إليهما بفرح، أما هما فلا يعلمان ذلك. لرؤيتهما، يبكي الصيني، ثم يتلفظ بكلمة «عبادة». تسمعه الأم. تقول، نعم، إنها الكلمة الملائمة لما يحدث بين الطفلين.

نسمع صوت الأخ البكر. إنه يخاطب الأم.

– على باولو أن يتجنـــب أن يبدو هكذا أمام الناس. يجب أن يكف عن ذلك....

لا يعيره أحد اهتماما، باستثناء الطفلة (وهذا غير مؤكد).

ينتهي الأخ الصغير وأخته من الرقص. تلتحق هي بإحدى الطاولات، حيث يجلس الصيني وحيدا. ترغب في الرقص معه. يرقصان.

– لقد شعرت بالخوف قبل قليل.

– من أن أقتله.

– أجل.

تبتسم الطفلة للصيني من جديد. تقول:

– من المستحيل أن تفهم.

– إنني أفهم قليلا.

– ربما معك حق، من ألا أحبك أبدا. أقول هذا الآن. ولا أقول شيئا آخر. الآن، هذا المساء، إنني لا أحبك، ولن أحبك أبدا.

الصيني لا يجيب.

تقول الطفلة أيضا:

– أفضل ألا تحبني. أن تعاملني كما تعامل النساء الأخريات،

عادة. هذا ما أردته. ولا ضرورة لأن تحبني.

صمت.

- سنرحل كلنا، حتى باولو. باستثناء طان. وستكون وحدك، مع زوجتك في البيت الأزرق.

يقول إنه يعرف ذلك...

يواصلان الرقص.

ثم يتوقفان عن ذلك.

- أريدك أن ترقص مع إحدى فتيات المرقص، لأراك.

يتردد الصيني، ثم يذهب ويدعو إحدى أجمل الفتيات الساقيات، تلك التي كانت قد رقصت مع باولو.

إنها رقصة تانغو.

الطفلة مستندة إلى درابزين المرقص في مواجهتهما: هو، رجل العبارة والحرير الأبيض، والأناقة الصينية المهانة، والتي في غير مكانها هنا.

تواصل النظر.

إنه ضائع في الألم. من عجزه عن اختراق القانون. ومن كونه لن يستطيع أبدا، أن يقتل الأب، أو يسرقه، ومن أنه لن يحمل الطفلة أبدا في السفن، وعلى متن القطارات، ليختفي بعيدا معها.

يعود الصيني من الرقص.

تتحدث الطفلة عن المال، والخوف من ذلك، وعن عدم معرفتها بما ستقوم به، البقاء، أم الرحيل. تقول:

هناك الديون. إنك لا يمكن أن تعرف... هذا يدفع إلى الجنون.

ما تتقاضاه أمي، تلتهمه الديون، قبل أي شيء آخر، وأداء الفوائد المترتبة عن الديون. هذا هو الجزء الأكبر من المصاريف ثم مزارع الأرز الميتة، وغير الصالحة للزراعة، المنهوبة، التي لا تصلح حتى كهدية للفقراء.

يقول الصيني:

- أود أن أحدثك عن شقيقك بيير. لقد رأيته في الأسبوع الماضي، أمام محششة النهر. طلب مني مائة بياستر، وقد أعطيته المبلغ. أعتقد أنه سيبقى مدمنا على المخدرات حتى الموت، كما أن تصرفاته مشبوهة، والخطير في الأمر أنه مستعد لفعل أي شيء مشين.

يقول الصيني أيضا:

- أما الأخطر فسيكون في فرنسا حين يفتقد الأفيون. عندها سيتناول الكوكايين ويصبح خطيرا. على أمك أن تبعد باولو عنه... وأنت أيضا، يمكن أن يدفع بك إلى الدعارة، سيفعل ذلك من دون تردد، لاقتناء ما يلزمه من مخدرات. إنه لايزال خائفا بشأنك. لكن هذا لن يستمرطويلا. إنك، في نظري، تعيشين مع مجرم.

تروي الطفلة:

- لقد حاول دفعي إلى الدعارة من قبل مع طبيب من سايغون كان في زيارة عابرة إلى ساديك. لقد علم طان بذلك من طرف الطبيب نفسه... وقد هم طان بقتله.

تكف الطفلة عن الرقص. ثم تسأل الصيني:

- هل أعطيته المائة بياستر كما تعطيها لأي كان...

- أجل.

تضحك الطفلة. تقول:

- لماذا؟

- لا أعرف. ربما لتستطيع والدتك تحمله. لكن لا. السبب هو أنني أحب الأفيون. هذا ولا شيء آخر. إنني أتفهمه.

- لقد فكرنا جميعا في قتله. حتى أمي فكرت في ذلك. مائة بياستر، هو الثمن الذي أساويه.

إنه المبلغ نفسه الذي طلبه ثمنا لي من الطبيب العابر...

صمت. يبتسم. يسأل:

- ألم ينل إعجابك؟...

- لا. قبلك، كان يعجبني طان.

الصيني كان يعرف ذلك.

يقول إنه سيغادر، سيذهب للعب الورق في شولين. وسيعود السائق إلى «الشلال» ليرافقها إلى الشقة لتأخذ المال.

تقول:

سأعطي المال إلى طان. ليعطيه بدوره إلى أمي في ساديك.

نهاية الرقصة. يتجه الصيني نحو الأم ويحييها. ينسى أن يؤدي، ثم يتذكر ذلك. يذهب ويضع مائة بياستر في الصحن الموضوع فوق الطاولة.

يأخذ النادل النقود، ويذهب، ليعود بالفكة، ويضعها في الصحن. لكن الصيني كان قد انصرف ونسي الفكة.

ببطء، يقف الأخ البكر، ويتوجه نحو البار. يعود، لتمتد يده نحو الصحن.

وحدهما، الطفلة وطان، شاهدا الأخ البكر، وهو يأخذ النقود من الصحن. يضحكان.

لا يثيران الموضــوع. أحيانا تضحك الطفلة وطان حين يريان الأخ البكر يسرق النقود. انتهى الأمر، لقد وضعها في جيبه.

هذا المساء، كان مرتبكا بسبب النادل الذي توجه إلى الطاولة لأخذ إكراميته وصاح لاعنا الزبائن الذين نسوا الخدمة. بمجرد أن يراه الأخ البكر، يخرج لانتظار الآخرين داخل ســيارة «ب١٢»، معلنا أنه قد انصرف. كانت الطفلة قد نسيت، فالأخ البكر جبان. وظلت خائفة. ظل طان خائفا هو الآخر، على الأخ البكر.

يواصل الأخ الصغير الرقص من دون أن يهتم بشــيء، لأنه لم ير ما وقع.

يعود الأخ البكر. ويصرخ: هيا، لنرحل من هذا المرقص التافه. مذعورا، يأمر الأخ الصغير بالخروج بسرعة. تتدخل الطفلة بين الشقيقين. تقول إنها تنتظر انتهاء الرقص.

ينتظر الأخ البكر.

الأم ثملة، تضحك من كل شيء، من اختلاس ابنها للنقود، ومن ذعر ابنتها، كما لو تعلق الأمر بتمثيلية هزلية مشوقة، تعرفها عن ظهر قلب، وتستمتع بها دائما كطفل.

يقصد الأخ البكر ساحة «الشلال» من جديد.

أحد العاملين في «الشــلال» يأتي ليعلن أن المرقص ســيغلق أبوابه. تتوقف الموسيقى.

ويغلق البار.

تقول الطفلة لطان:

- حقا إننا عائلة من الحمقى.

يقول طان إن هذا خبر مهم، ويضحك.

تقـــول الطفلة لطان إنها ســـتذهب لأخذ النقود من الشـــقة، وإن عليه أن ينتظرها بشـــارع ليوطي باتجـــاه المنحدرات، حيث توجـــد أليس. إنه يعرف المـــكان. ويتذكر القصـــة التي روتها له الطفلـــة، قصة أليس مع الغرباء الذين يتوقفون بســـياراتهم في هذا المكان.

تتحـــدث الطفلة مع طان عن كل شـــيء إلا قصتها مع صيني ســـاديك. ولا تتحدث عن قصتها مع طان إلا مع صيني ســـاديك هذا.

يخرج الكل من المرقص.

سيارة الليموزين مضاءة من الداخل كسجن.

إنها فارغة. والســـائق ينتظر الطفلـــة. الأخ البكر يغفو داخل سيارة «ب ١٢».

كل أفـــراد العائلة ينظـــرون ولا يفهمون أيـــن ذهب الصيني، باستثناء طان والطفلة اللذين انفجرا ضاحكين.

تصعد الأم والأخ إلى السيارة ويجلسان في المقعد الخلفي.

يجلس الأخ الصغير كالعادة، بجوار طان.

يفتح السائق باب الليون- بولي.

تصعد الطفلة وتجلس في المقعد الخلفي.

تنظر العائلة بذهول. مازالـــت تنتظر الصيني، لتفهم بعد أن ترى الطفلة تمر من أمامها

وحيدة في الليون- بولي.

تضحك. ويضحك السائق.

يقول السائق بالفرنسية:

- قال سيدي: إننا سنذهب إلى شولين.

يتوقف السائق أمام الشقة. يذهب ويفتح الباب. تنزل الفتاة، وتدخل بهدوء إلى الشقة.

تتصرف كما لو كان نائما. تعيد إغلاق الباب، تنتظر، لا أحد. إنها المرة الأولى.

على الطاولة يوجد مغلف مفتوح من الحجم الكبير.

تتناولــه بعد أن تجلس علــى الأريكة بجانــب الطاولة. تظل كذلك. حبيسة مع النقود.

في الخارج، يوقف السائق محرك الليون- بولي.

يخيم الصمت، باستثناء نباح كلاب في البعيد.

داخــل المغلف الكبير، كان هنــاك مغلفان آخران، واحد للأم، والآخــر لطان. الأوراق النقدية لا تخرجها الطفلة، بل تدفع بها داخل المغلف الأصفر الكبير الذي يحوي النقود كلها.

تظل هناك. على الأريكة يرقد قميص الحمام الأسود للعشيق، جنائزيا، ومرعبا. المكان مهجور. تجهش بالبكاء. لاتزال جالســة وحيــدة مع النقــود. منفعلة بذاتها، أمام المال الذي اســتطاعت الحصول عليه. تبكي بهــدوء، بســبب الذكــاء، والتــعاسة التي لا يمكن وصفها، وليس بسبب الألم.

تتناول حقيبتها. تضع المغلــف داخل الحقيبة. تنهض. تطفئ النور وتغادر الشقة.

تظل هناك، حيث كانت.

النور مطفأ في الشقة.

نسمع صوت المفتاح في القفل. ثم نسمع صوت محرك الليون - بولي. ثم نسمعه وهو يبتعد، ويذوب في المدينة.

* * *

داخلية اليوطي.

الساحة خالية.

بجانب قاعات الطعام، يغني الخدم الصغار ويلعبون الورق.

تخلـــع الطفلة خفيها، وتصعد إلـــى عنبر النوم. كانت النوافذ مفتوحة من الجانب المطل على الشارع وراء المدرسة الداخلية.

بعض الفتيات وراء النوافذ يشـــاهدن أليس وهي تســـير في الشارع غير المضاء.

مع الفتيات الداخليات هناك أيضا حارســـتان تشـــاهدان ما يقع. إنه أحد الشـــوارع الأخيرة بسايغون، حيث داخلية الفتيات الخلاسيات اللواتي تخلى عنهن آباؤهن من العرق الأبيض [*].

تدنـــو الطفلـــة وتنظـــر إلى الشـــارع. حركات غيـــر مفهومة ومشـــبوهة. الرجال والنســـاء، كلهم بلباس أبيض. تنهض أليس وعشيقها.

هيلين لاكولين من بين الفتيات اللواتي ينظرن من النوافذ.

تذهب الطفلة للنوم.

تعود أليـــس. تعبر العنبر. تطفئ النور، وتنام. تنهض الطفلة. تعبر الممر والساحة. ثم تخرج.

(*) في مزرعة الأرز الكبيرة بكامو، نهاية مناقع الكوتشينيين، كان الموظفون البيض يجبرون على البقاء من دون زوجاتهم، خوفا من حمى المســـتنقعات والطاعون اللذين كانا مستشريين في سهل الطيور البارز حديثا من البحر.

تواصل السير حتى الشارع الذي تواعدت فيه مع طان.

تنادي بهدوء على الاسم المرنم لطان.

الطفلة وطان.

من وراء المدرسة الداخلية يبرز طان من العتمة. تتوجه نحوه..

يذهبان إلى السيارة «B12» وراء المدرسة الداخلية.

تصعد إلى الخلف، ينظر أحدهما إلى الآخر. إنه يعرف.

لا يقول شيئا. يتوجه إلى حديقة الحيوانات. لا وجود لأحد هناك. يتوقف بالسيارة قرب السور، وراء قفص الحيوانات الشقراء. تقول:

- كنت آتي هنا وحدي، من قبل، كل يوم خميس. بعد ذلك أتيت معك.

يتبادلان النظرات. يقول طان.

- هل أنت عشيقته؟

- أجل... هل تتمنى عكس ذلك.

- أجل.

يئن السائق الصغير. يتكلم بالفيتنامية. لا ينظر إليها. تقول: تعال يا طان.

- لا.

- لا، لا أستطيع. أنت أختي.

تستيقظ الطفلة. إنه الليل. أسود لايزال. تنادي على طان. تقول له إن عليها الذهاب إلى فندق شارنر قبل طلوع النهار.

تغرق في النوم من جديد.

ينظر إليهـا طان لمدة طويلة وهي نائمة، ثم يتوجه نحو فندق «شارنر».

فندق «شارنر». الغرفة.

الأخ الصغير هناك...إنه نائم.

يتجاوز طان السرير الثاني، وينام على المفرش.

يتكلمان عن الأم بصـوت منخفض. لقد تكلم مع والدة بيير. يروي للطفلة:

– في الأسـبوع الماضي، قام بيير بسرقة أصحاب «محششة الميكونغ» مرة أخرى. قالت لي إذا لم يقم بتعويضهم فسـيذهب إلى السـجن. إن فكرة السـجن ترعبها. حتـى إن اضطرت إلى الرحيل على عجل إلى فرنسـا، فعليها أن تدفع إلى المحششـة. هذا سـينتهي مع الرحيل. عليهـا أن تحتفظ بالمال من أجل هذا أيضـا، تعويض المحششـة. لا أعرف كيف لا تصبـح هذه الأم مجنونة.

تقول الطفلة:

– لقد أصبحت مجنونة. أنت تعرف ذلك.

– نعم. أعرف ذلك.

تقول الطفلة مرة أخرى:

– لا تقل شيئا للأم.

– لا تذكر شـيئا للأم عن هذا المال. ستدعه يسرق من طرف بيير في المساء نفسه.

– أعرف كل هذا، سـأذهب بنفسـي لتعويض المحششة، بعد ذلك سأخبئ الباقي.

صمت. تنظر الطفلة إلى طان. تقول له:

- طيلة حياتي وأنا أحبك وأحترمك.

تقدم المغلف الكبير الذي يحوي المال إلى طان الذي يلفه داخل منديل صغير ويعقده، ثم يتمنطق به، ويشد عقد المنديل. بعد ذلك يقول:

- يستطيع دائما أن يقوم بمحاولة لأخذه.

تقول الطفلة:

- لا تخبر أحدا أين خبأت المال، حتى أنا.

يقول طان إنه لن يخبر أحدا، حتى باولو الذي لا ذاكرة له.

تنظر الطفلة إلى طان وهو يغفو.

حين كانا يذهبان بسيارة «ب١٢» إلى السد، كان طان يغني ليجعل الطفلة تنام. كان يقول: هذا لطرد الخوف من الأرواح الشريرة، ولطرد الخوف من الغابة، ومن النمور أيضا، ومن القراصنة، وباقي كوارث الحدود الآسيوية للكامبودج.

ينام طان. تداعب الطفلة طان. تفكر في غابة سيام ثم تبكي.

يتركها طان تداعبه ويشرع في الغناء من أجلها. وهي تبكي وتسأله لماذا لا يبادلها اللعب؟ يضحك. يقول إن بداخله خوفا من أن يقتل الرجال والنساء ذوي البشرة البيضاء. لذلك عليها أن تحذر منه.

شولين من جديد.

أحيانا يأتي السائق وحده إلى الشقة. وأحيانا لا يكون الصيني قد عاد بعد. يأتي الصيني، ولا نعرف من أين، مثل زائر ليزور الطفلة.

الشــقة لا تغلق أبــدا تقريبا، حتى بالليــل. فالصيني لا يغلق البــاب. يقول إن له علاقة جيدة مع الجيــران. فقبل أن يعرفها كان يحتفل مــع جيران الحي ومع جيــران الأحياء الأخرى لكن بعد التعرف عليها، اختفت الاحتفالات. كانت الطفلة تســأله هل يتحسر على هذه الاحتفالات، وكان يجيبها بأنه لا يعرف.

وذات مساء، أحد المســاءات الأخيرة، لم تكن السيارة السوداء في شــارع الثانوية. يشتد بها الخوف. فتذهب إلى شولين بواسطة «مركبة جر»(*). إنه هناك. وحده. نائما في وضع جنيني، منكمشــا على نفســه. إنها تعرف أنه غير نائــم. تنظر إليه طويلا، من دون أن تقترب منه. يتظاهر بالاســتيقاظ. يبتسم لها. تنظر إليه طويلا من دون أن تتكلم. ثم يمد لها ذراعيه، فتأتي ويجلســها بجانبه. ثم يبعدها عنه. يقول إنه لا يستطيع. بعد هذا ستدخل فكرة الانفصال إلى الغرفة وتمكث هناك، كشيء نتن لا يمكن الاقتراب منه.

يقــول إنه لم يعد راغبــا في تلك التي ســترحل عنه وتتركه وحيدا للأبد.

لم يتكلم عن الألم. يقول إن جســده أصبــح يحب هذا الألم الذي عوض جسد الطفلة.

كان ذلك شــيئا ظل غامضا بالنســبة إليها. لأنه لم يحســن التعبير عنه.

يمكــننــا أن نقــول، نعــم، إنه أحبــهــا مثــل مجنون. وإنــه الآن لــم يعد يحب إلا المعرفــة العقيمة لهذا الحب، والتي تجعله يشعر بالمعاناة.

(*) مركبة خفيفة ذات عجلتين يجرها رجل، تستخدم بكثرة في البلدان الآسيوية. [المترجم].

لكن السائق، كان ينتظر الطفلة كل مساء، في سيارة ليون بولي.

يسأل هل تغلق المدرسة الداخلية أبوابها في وقت محدد، تقول نعم - بالتأكيد - لكن يمكن التسلل من باب الحارس. تقول:

- إنه يعرفنا. وإذا لم يسمعنا، نذهب وراء المطابخ وننادي على أحد الخدم فيفتح الباب.

يبتسم ويقول:

- هل كل الخدم يعرفونك؟

- أجل. ندخل ونخرج متى نشاء، إننا مثل إخوة مع أخواتهم، أتحدث معهم باللغة الأنامية، ولا يستطيعون التمييز.

فجأة، يستولي على الطفلة غضب يستحيل كبحه. تقول:

- إذا أرغمت على الدخول إلى المدرسة الداخلية كل مساء، وأمي تعرف هذا، فسآخذ معي أخي الصغير وطان وأهرب إلى «بريي- نوب»، عند السد.

يسأل الصيني: أين يقع ذلك بالضبط. تقول لا يهم إذا لم يعرف ذلك. يعيد هو:

- عند السد. مع باولو وطان. تقول إن ذلك يشبه الجنة.

تقول نعم. إنها الجنة (*).

يسأل:

- هل سبق لك أن تغيبت عن المدرسة الداخلية؟

(*) دام هذا الحلم سنوات بعد رحيل الطفلة: رؤية بريي - نوب مرة أخرى، الطريق الجانبية إلى ريام. الليل. طريق كامبوط، وصولا إلى البحر. والحفلات الراقصة لمقاهي ميناء ريام، ورقصتي «ليالي الصين»، و «رامونا» مع الشبان الأجانب الذين يهربون على الشاطئ.

- لا. باستتثناء المرات التي تأتي فيها أمي، لقد أخبرتك بذلك، فأذهب معها إلى فندق «شارنير». أما السينما، فمن النادر أن أذهب إليها وحدي. فأخي الصغير يرافقني دائما هو وطان.

- هل تذهبين أحيانا وحدك مع طان إلى السد؟

- أحيانا. عند منتصف الشهر. أو لأداء أجور العمال، بعد نزول الأمطار.

تروي أنهما كانا ينامان معا على سرير الميدان نفسه. بعدها انخرط في السياسة، وأحبني.

لا يقاطعها الصيني. يتركها تتكلم. تنظر إليه. تعرف: ليست هي من ينظر إليها، بل الصفوف الأمامية في «سينما عدن»، حيث تذهب، كل مساء، الفتيات الخلاسيات الهاربات من عنابر داخلية ليوطي.

تقول:

- نادرا ما أذهب برفقة هيلين إلى السينما. إنها تشعر بالملل، وهي لا تفهم شيئا في السينما. ما هناك، هو أننا...أنت تفهم، لا نؤدي ثمن التذكرة بسينما عدن... من قبل، وحين كانت أمي في سايغون تنتظر تعيينها، كانت تعزف على البيانو في سينما عدن. لهذا تدعنا الإدارة ندخل مجانا...نسيت أن أقول لك إنني أذهب إلى السينما أيضا مع أستاذي في الرياضيات.

- لماذا هو؟

- لأنه يطلب مني ذلك. إنه شاب، ويشعر بالضجر في سايغون.

- هل يعجبك...

تجيب الطفلة بارتياب:

- بشكل متوسط...

- وطان؟

تفكر. تقول:

- كيف أعبر عن ذلك... إنه يعجبني ألف مرة مقارنة مع أستاذ الرياضيات. إنه يعجبني كثيرا. أنت تعرف ذلك.

- أجل.

- لماذا تسألني إذن؟

- لكي أعاني بسببك.

تصبح لطيفة فجأة. تقول إنها تحب كثيرا أن تتكلم عن طان.

يقول إنه هو أيضا يحب طان كثيرا، فمن المستحيل ألا يحبه.

تقول أيضا إن طان سيعود يوما إلى قريته في جبل سلسلة الفيل باتجاه سيام. سيكون قريبا من أراضي السد.

إنهما الآن في اتجاه قناة مكاتب الإرساليات البحرية حيث يذهبان كل مساء منذ موسم القيظ. مكسوة بأغصان الأشجار.

يتوقف السائق أمام منضدة خشبية مغطاة بكومة من الأغصان. يتناولان شراب الشوم.

ينظر الصيني إلى الطفلة، إنه يحبها. يقول لها ذلك:

- أحبك، ماذا أفعل - يبتسم - رغم المعاناة.

يشاركهما السائق الشراب. في هذا المكان، يتناولون، هم الثلاثة، شراب الشوم، ويضحكون...

تنظر إلى الصيني. تود أن تقول له شيئا. إنه يعرف ذلك:

- ماذا هناك؟

تقول إنها تريد أن تعود هذا المساء إلى المدرسة الداخلية.

- من أجل هيلين، تقول، ستنتظرني، وإذا لم آت ستشعر بالتعاسة، ولن يغمض لها جفن.

ينظر إليها الصيني:

- هذا ليس صحيحا.

- معك حق، هذا ليس صحيحا بالمرة.

تقول:

- في الواقع، أرغب في أن أبقى وحدي. ولو مرة واحدة، لأفكر فيك وفي نفسي. وفي كل ما حدث.

- وفي لا شيء أيضا.

- أجل. وفي لا شيء أيضا.

- وفي مستقبلك...لا، لا، إنني متأكد أنك لا تفكرين أبدا في ذلك.

- أبدا. هذا صحيح.

يقول إنه كان يعرف ذلك.

تبتسم له، تستظل بجسده. تقول:

- أعتقد أن حياتي بدأت مع قصتنا.

يداعب الصيني شعر الطفلة. يقول:

- كيف ذلك؟

- لأنني أرغب، أحيانا، في الموت، في العذاب، وأرغب في أن أبقى بمفردي، من دونك، حتى أحبك أتعذب بسببك، وأفكر

فيما سأفعله.

ترفع بصرها نحوه وتقول:

- مثلك، فأنت أيضا تود أن تبقى بمفردك.

- أجل فأنا لا أبتعد عنك إلا ليلا حين تكونين نائمة.

تضحك. تقول:

- يحدث هذا معي ليلا، أما أنت، فحين تتكلم بالصينية.

تدير وجهها، وتروي:

في الشهر الماضي، تأخر موعد عادتي الشهرية. في البداية، شعرت بالخوف. لا أعرف لماذا نخاف. بعد ذلك، ومع قطرات الدم، شعرت بالندم...

تصمت. يضمها إليه. ترتعش. لا تبكي. أحست برعدة تسري في جسدها وهي تقول ذلك.

بدأت أفكر كيف سيكون شكل الطفل. لقد رأيته. إنه بملامح صينية مثلك. لقد كنت هناك معي تداعب يديه.

لا يقول شيئا. تسأله: هل سيتخلى والده عن موقفه في حال وجود هذا الطفل؟

يصمت الصيني.

ثم يجيب بأن الأمر سيكون مأساويا، لكن والده لن يتنازل عن موقفه أبدا.

تنظر إليه الطفلة وهو يبكي. تبكي بدورها. تحاول أن تداري دموعها. تقول إنهما سيريان بعضهما. لأنه من المستحيل أن يكون الأمر خلاف ذلك، لا يجيب.

تعبر الطفلة الساحة الكبرى لداخلية ليوطي.

في نهاية الممر، باتجاه المطابخ، ينبعث النور من مصباح الخدم. الخادم الذي يغني هو نفسه الذي كان موجودا في أثناء الموسيقى الراقصة. إنه يترنم، هذا المساء، بأغنية تحفظها الطفلة عن ظهر قلب.

إنها الأغنية نفسها التي كان طان ينشدها فجرا، عند الخروج من الغابة قبل «كامبوط».

طالما أحبت الطفلة هذا العبور المتكرر لساحة داخلية ليوطي، والسقائف، وعنابر النوم، والخوف أيضا في عمق الليل، كل هذا كان يعجبها. كما كانت تعجبها رغبة الخدم الشبان في الفتيات البيضاوات اللواتي يعدن متأخرات بالليل.

في السرير المحاذي لسريرها، كانت هيلين لاكولين نائمة.

لا توقظ الطفلة، لأنها هي الأخرى، وبمجرد أن تغمض عينيها. يأخذها النوم الطفولي المشترك والمدوخ.

* * *

الشقة

لا ينظر أحدهما إلى الآخر.

ألم الصيني رهيب. أما الطفلة فخوفها من لونغ - هاي بدأ يتولد كل مساء تقريبا في الشقة. الخوف من أن تموت بسبب ذلك.

هذا المساء، تحدثه عن هيلين لاكولين. تقول إنها تريد أن تأخذها إلى هناك.

- أرغب كثيرا في هذا.. أرغب في أن يحدث هذا، قبل أن نفترق.

إنــه لا يفهــم. كلماتها تجعله غير مهتم، لا ينظــر إليها. إنها تبكــي وهي تتكلم. وهو ينظر إلى الخارج، هناك، حيث الشــارع والليل.

تقول:

- يروق لي أن أحبك، وأن أتعذب.

يظل الصيني صامتا. تصرخ الطفلة:

- أتمناها لك، كثيرا. هل تفهم؟

صرخــت. الصيني يكلم نفســه. لا يتكلم عــن هيلين، بل عن ألمه.

- لم أعد أفهم شيئا. لا أفهم كيف حصل ذلك... كيف تقبلت ذلك... كيف تقبلت ذلك من والدي، أن أدعه يقتل ابنه.

صمت. تتمدد الطفلة بجانبه. تضربه. تصرخ:

- إن هيلــين حزينة جدا أيضــا... هي لا تعرف ذلك حتى... كل الفتيات الداخليات يحببنها، الحارســات، المديرة، الأساتذة، كلهــم، لا تعيرهم اعتبارا. ربمــا هي لا ترى ذلك، لا تعرف ذلك، بالكلمات نفسها. ستخلط بيني وبينها. وحين تكون على وشك أن تنساني، أنظر إليك وأبكي.

لم يبق إلا عشــرة أيام قبل الرحيل. لا أســتطيع التفكير في ذلك، فالصورة قوية، صورتكما، وأنتما معا.

يصرخ الصيني:

- لا أرغب في هيلين لاكولين، لا أرغب في أي شيء.

تصمت. يغفو. ينام في هواء المروحة الســاخن. تهمس اسمه للمرة الوحيدة. ثم تنام. هو لم يسمع ذلك.

في الليل الأسـود، يأتي المطر فجأة. الطفلة مسـتغرقة في النوم.

كان الصيني يقول بهدوء من عمق الزمن، واليأس:

– لقد بدأت الريح الموسمية.

كانت قد استيقظت، وسمعت ذلك.

ذلـك المطر هطل على المدينة التـي أصبحت نهرا يغطي كل شولين.

تستغرق الطفلة في النوم من جديد.

بهـدوء، طلب الصيني من الطفلـة أن تأتي لترى مطر الريح الموسمية. كم كان ذلك جميلا ومرغوبا فيه. خصوصا في الليل، خلال موسم القيظ الذي يسـبقه. كانـت بعيـنين مفـتوحتين، ولا تريد أن ترى شـيئا. أغمضت عينيها. لا تريد أن ترى شيئا، قالت. ثم استدارت نحو الحائط (*).

إنه حالم جدا، ووحيد جدا.

إنهما وحيدان جدا. وبعيدان أحدهما عن الآخر.

صمت.

ثم يطـرح السـؤال الطقوسـي. يتكلمان من أجـل الكلام. يرتعشان. أيديهما ترتعش.

– ماذا ستفعلين في فرنسا؟

– لدي منحة دراسية، سأكمل دراستي.

(*) في مسـاء بداية الأمطار الموسـمية ذاك، لم تعد تعرف أين كانـا يوجدان. ربما في المقهى يشـربان الشوم أو بجانب قفص الحيوانات بحديقة النباتات يستمعان إلى الفهود السوداء تبكي الغابة، أو هناك، داخل تلك الشقة..إنها تذكر صوت المطر في الرواق وقد سحق الجسد من دون أن يصيبه، وهذه الراحة المباغتة للجسد الذي تحرر من الألم.

- ماذا تتمنى لك أمك أن تكوني في المستقبل؟

- لا شيء. لقد أرادت كل شيء لولديها. أما بالنسبة إليّ، فهي لا تتمنى أي شيء. ربما، ستحتفظ بباولو معها... أما بالنسبة إليّ فكل ما أريده هو أن أظل مع طان، هناك، في البنغل عند السد.

يسأل الصيني عن طان.

- من أين قدمت عائلته؟

- إنه لا يعرف. لقد كان صغيرا جدا، حين جاءت به أمي. من الغريب أنه لا يتذكر والديه، ولا أي شـــيء، باستثناء بعض الإخوة والأخوات الصغار، والغابة.

- لم يحاول معرفة مكان هؤلاء الإخوة والأخوات.

- لا. يقول من المستحيل أن يكونوا قد استمروا في الحياة.

صمت.

بعدها يبكيان.

تسأل:

- ألن نلتقي أبدا. أبدا؟

- أبدا.

- على الأقل...

- لا.

- سننسى.

- لا.

- سنحب أناسا آخرين؟

- أجل.

ينغمران في الدموع.

- بعد ذلك، سنحب أناسا آخرين.

- هذا صحيح.

صمت. يبكيان.

- بعد ذلك، سنتكلم، مع أشخاص آخرين، وسنروي قصتنا.

- ثم بعد ذلك، وفي يوم من الأيام، بعد زمن طويل، سنكتب القصة.

- لا أعرف.

يبكيان.

- ثم سنموت في يوم من الأيام.

- أجل. وسيكون الحب داخل التابوت مع الجسد.

- أجل، وستكون الكتب خارج التابوت.

- ربما. لا يمكننا أن نعرف.

يقول الصيني:

- بلى. إننا نعرف أنه ستكون هناك كتب. نعرف ذلك. لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك.

صوت المطر من جديد في الليل.

نراهما في العتمة، بسبب سماء الأمطار الموسمية السوداء، وما يمكن من التعرف عليهما أيضا، القامة الصغيرة للطفلة، بجانب الجسد الطويل، لصيني الشمال.

يدق جرس المنبه في الشقة المعتمة.

تنهض الطفلة. تنظر إلى الخارج. غبش الصباح. تجرفها الذكرى، فتبكي.

تنظر إلى المنبه. لايزال الوقت مبكرا جدا، ولم تصل الساعة

السادسة صباحا بعد. لقد أخبر السائق أن يضبط المنبه.

السماء لاتزال بلون الليل، معتمة.

يفتح السائق الباب. يقدم لها فنجان قهوة وقطعة حلوى صينية.

إنها تتذكر. لقد نسيت رحيل الأخ البكر.

على السائق أن يقلها إلى ميناء «الإرساليات البحرية».

يتوجه السائق نحو طريق القنوات. يسير بسرعة.

ستلتقي بهم أمام السياج الخارجي لمكاتب «الإرساليات البحرية».

هناك طان والأخ الصغير، أمام السطح الكبير لرصيف الإقلاع.

تطلع الشمس في سماء لا مبالية، رمادية اللون.

على الرصيف، هناك الباخرة على وشك الإقلاع: باخرة ركاب من ثلاث درجات. إنها هي.

خلف السياج الكبير، هناك الطفلة وطان، وقد احتجزا في الخارج. تلتحق بهما الطفلة.

أمام السياج، توجد الأم وحدها مع ابنها البكر بيير، الذي سيرحل.

وهناك، بضعة أشخاص فقط، من الجنس الأبيض.

كما لو كان رحيل محكومين بالأشغال الشاقة.

وسط «مسافري الجسر»، كان هناك بعض رجال الشرطة، الأهالي بلباس كاكي، وأقدام حافية.

إنهم دائما هناك، بالقرب من الباخرة التي على وشك الإقلاع،

بسبب مهربي الأفيون، الفارين من السجون، والمحتالين، والرعاع من كل الأجناس وكل أشكال التهريب.

الجسر الخاص بالدرجتين الأولى والثانية مملوء بالهنود الذين سيتوقفون في كولومبو وبعض المسافرين ذوي اللون الملتبس الذين عليهم النزول بسنغافورة.

إنها رحلة عادية.

على الجسر الأسـفل للباخرة هناك الأخ البكر، وقد نزل من جسر الدرجة الأولى ليقترب أكثر من الأم.

تتظاهـر كما لو أنهـا لم تره. يحـاول أن يضحك. لم يلحظ شقيقته وشقيقه. إنه ينظر إلى هذه المرأة التي تشعر بالعار، أمه، ثم ينفجر منتحبا.

إنه أول انفصال عنها. الآن وهو يبلغ من العمر تسـعة عشـر عاما.

الطفلة والأخ الصغير يبكيان بيأس لا يمكن أن يشاركهما فيه أحد. يضمهما طان إليه، يداعب وجهيهما وأيديهما. تدمع عيناه لبكائهما. يبكي متأثرا أيضا ببكاء الأم ونحيب الطفلة.

تلتفت الأم نحو الباخرة. وجهها لا يُرى. ثم تلتفت مرة أخرى. تتقدم نحو الحواجز وتتشبث بها إلى جانب الطفلين اللذين تبقيا لها. تبكي في صمت، منهارة القوى. يخالجها الشـعور بأنها قد ماتت... طان يداعب جسـدي الطفلـين المنفصلين أحدهما عن الآخر، شقيقهما البكر، ذلك الطفل الذي ضيعه حب أمه.

تدوي صافرة الباخرة.

تفقد الأم عقلها.

تجري. تهرب باتجاه الباخرة.

يفتح طان الحاجز، ويلحق بها، يحيطها بذراعيه من دون مقاومة منها. تقول:

- أنا لا أبكي بسبب رحيله... إنني أبكي لأنه فتى ضائع، هذا ما أراه. لقد أصبح ميتا... ولا أريد أن أراه. فلم يعد ذلك ضروريا.

يمنعها طان من رؤية الباخرة وهي تبتعد. يبتعد الأخ البكر، مطأطئ الرأس، يغادر الجسر، ولن ينظر إلى أمه.

يختفي داخل الباخرة.

يظلان طويلا هناك، متعانقين.

ثم يدع طان الأم. لم تعد تنظر إلى شيء. إنها تعرف أن ذلك لم يعد ضروريا، وأننا لم نعد نستطيع التمييز بين الأجساد والوجوه.

وحده طان بقي دامع العينين. يبكي هو أيضا بسبب هذا الموقف، اليتيم، والطفل المتخلى عنه.

باب الشقة مشرع. تدخل. الصيني يدخن الأفيون. لا يعير اهتماما للطفلة.

تقترب، وتتمدد بجانبه. من دون أن تلمسه.

تبكي. يتركها تبكي. لطيفة وشاردة. وهو يعرف ذلك.

صمت. يقول:

- انتهى الأمر.

- أجل.

- سمعت صفارات الباخرة.

يقول أيضا:

– هــذا محزن قليــلا. يجب ألا تبكي. لم يمــت أحد. لا ترد الطفلة. تظل شاردة.

بعد ذلــك، تتلفـظ بشـــيء علـمته مــن طان ذلك الصـباح. لقــد وضعت الأم ابنها بالقســم الداخلي، لــدى وصيها القديم «دوغدوني»، وأنها لن تراه حين نجيء إلى فرنسا. هذا هو السبب أيضا، في يأسها المطلق وهي تفارقه. تقول:

– إنهــا تعاني من تأنيب الضمير، لأنها تخلت عنا لســنوات، باولو وأنا. وتعتقد أن ذلك خطير.

يتحدث الصيني عن زواجه حتى يجعل الطفلة تنســى رحيل الأخ البكر. يقول:

– ستأتي زوجتي إلىساديك. إنها الزيارة الأخيرة قبل الزواج. علي الذهاب إلى ساديك لزيارتها.

ســمعت الطفلة كلامه. ها هي، بغتة، أمامه، مستعدة لسماع القصة الأكثر تشويقا وأسرا من قصتها، ومن كل الروايات، قصة ضحيتهــا: (المرأة الأخرى للقصة)، المــرأة غير المرئية، امرأة كل الغراميات.

يرى الصيني أن الطفلة عادت إليه، إنها تصغي.

يواصــل الحكي. يقــول أيضا: تعرفــين، أن الأمر كذلك في الصين منذ عشرة آلاف سنة.

تطلب منه أن يستمر في الحكي مهما يكن.

حين رأيت زوجتي لأول مرة، كان عمرها عشر سنوات. وكان عمري عشرين سنة. لقد تم تحديد زواجنا من طرف العائلتين

حين كان عمرها ست سنوات. لم يسبق لي أن كلمتها قط. إنها غنية، مثلي. العائلتان حددتا زواجنا من أجل هذا، قبل كل شيء. التعادل في الثروات. كلها مكسوة بالذهب واليشم والألماس. مثل والدتي.

تصغي الطفلة وهي مفعمة بالرغبة في الاستماع. تسأل:

- ولماذا تحددون الزواج هكذا؟

- للأخلاق العالية للعائلة.

تبتسم الطفلة، ساخرة. يبتسم الصيني بدوره. يقول:

- أنسى أحيانا كم أنت صغيرة... وطفلة... إنني أتذكر ذلك حين تصغين للحكايات التي أذكرها...

تشعر بالتعاسة. وقد كفت عن البكاء. يهمس إليها الصيني:

- حبي...ابنتي الصغيرة...

تلمس الطفلة جبهة الصيني:

- حرارتك مرتفعة، كما لو كنت محموما.

ينظر إليها الصيني متأملا. ينظر إليها «للأبد مرة واحدة» قبل نهاية قصة الحب.

يقول:

- هل تريدين إخباري بشيء ما...

- أجل. لقد كذبت عليك. بلغت الخامسة عشرة منذ عشرة أيام.

- هذا لا يهم.

يتردد قبل أن يقول ذلك:

- كان والدي يعلم ذلك. لقد أخبرني.

تصرخ الطفلة:

- كم هو مقزز والدك هذا.

يبتسم للطفلة، ويضيف:

- الصينيون يحبون أيضا الفتيات الصغيرات. لا تبكي. إنني أعرف ذلك.

تقول:

- أنا لا أبكي.

ثم تبكي.

يقول:

- أنا أيضا أردت أن أخبرك بشيء... لقد عملت على إمداد شقيقك بالأفيون. من دون أفيون سيتحول إلى شبه ميت... يستطيع أن يدخن قليلا، في الباخرة... كما منحته بعض المال.

تبتعد عنه، بغتة، وهي غاضبة، من دون أن تجيبه. يقول:

- كنت أود أن...، لكنني لا أرغب فيك.

صمت. تقول:

- هكذا أفضل.

- أجل. لم أعد أتعذب. افعلي ذلك من أجلي.

ينظران أحدهما إلى الآخر حتى الدموع. ولأول مرة في حياتها، تتلفظ بالكلمات الملائمة، كلمات الكتب، والسينما، والحياة، والعشاق.

- أحبك.

يخفي الصيني وجهه، مصعوقا بالتفاهة الكلية للكلمات التي تلفظت بها الطفلة.

يقول: أجل هذا صحيح. يغمض عينيه. يهمس:

- أظن أن هذا ما سيحدث لنا.

صمت.

ينادي عليها مرة أخرى.

- ابنتي الصغيرة... طفلتي.

يجثم صمت طويل.

لم ينظر إليها. رفع يديها عنه.

ابتعد عنها. لم يتحرك أبدا. تشـعر بخوف شبيه بخوف لونغ

- هاي.

تنهض. تنتعل خفيها، تأخذ حقيبتها وتبقى هناك، وسط الشقة. يفتح عينيه. يدير وجهه إلى الحائط حتى لا يراها. يقول بلطف مفاجئ:

- لا تعودي أبدا.

تغادر. تقول:

- كيف نقوم بذلك؟

- لا أعرف. لا تعودي ثانية. أبدا:

تقول:

- أبدا. حتى إن ناديت عليّ؟

لم يكن قد أجاب. ثم أجاب:

- حتى إن ناديت عليك. لا تعودي أبدا. تغادر. وتغلق الباب.

تنتظر.

لم يناد عليها.

لم يصرخ إلا حين وصلت إلى السيارة.

كانت صرخة مكتومة، صرخة عجز، وغضب واشمئزاز، كما لو كان يتقيأ. لقد كانت صرخة منطوقة قادمة من الصين السحيقة.

وفجأة، تتقلص هذه الصرخة، تتحول إلى شكوى سرية لعاشق، وامرأة. ثم، في النهاية، حين لم تعد سوى نعومة ونسيان، تعود الصرخة غريبة، مخيفة، ذاعرة، وقحة، مستعصية على الفهم مثل الجنون، والموت، والرغبة.

ثمة حافلة في الطريق. إنها حافلة العبارة.

داخل الحافلة توجد الطفلة.

إنها في الطريق إلى ساديك لرؤية أمها.

الباب مشرع. يخيل لنا أن لا أحد موجودا. لكن الأم هناك، داخل الصالون، نائمة، ممددة فوق كرسيها الملكي، وسط تيار الهواء الصادر من الباب. شعرها مشعث. وبالقرب منها، يجلس طان القرفصاء، وظهره للحائط. تدخل الطفلة. تستيقظ الأم. ترى ابنتها. تقول، وقد علت وجهها ابتسامة ناعمة ممزوجة بقليل من السخرية:

– كنت أعرف أنك ستأتين، مم كنت تخافين؟

– من أن تموتي.

– على العكس. إنني أستريح. كما لو كنت في عطلة. لم أعد أخاف من أن يقتتلا. إنني سعيدة.

ثم ينكسر الصوت. إنها تبكي. صمت. تنظر إلى ابنتها، ثم تضحك وهي تبكي كما لو أنها تكتشفها للمرة الأولى.

– ما هذه القبعة؟

تبتسم الطفلة لأمها وهي تبكي.

تبتسم الأم أيضا، تفكر ولا ترى دموع ابنتها، ترى القبعة.

- ملاحظــة... هــذا ليس قبيحــا، هناك تغير. هــل أنا من اشتريتها؟

- ومن غيرك - تبتســم - في بعض الأيام نجعلك تشترين لنا كل ما نرغب فيه.

- أين كان ذلك؟

- بشارع كاتينات، في موسم التخفيضات.

تبدو الأم ثملة. تغير مجرى الحوار، وتسأل:

- ماذا سيفعل باولو...

لا تجيب الطفلة، تلح الأم:

- هناك أشياء يمكنه القيام بها على أي حال... الآن وقد زال خوفه.

تقول الطفلة: إنه سيظل خائفا طوال حياته.

تطرح الأم السؤال على طان:

- في نظرك، ماذا في وسع باولو أن يقوم به في المستقبل؟

يجيب طان الطفلة:

- في إمكانه أن يكون محاسبا. إنه يتقن الحساب. والميكانيكا أيضا. إنه يفهم في السيارات... لكن، صحيح، إنه سيظل خائفا طوال حياته.

لا تريد الأم الحديث عن هذا الخوف. تقول:

- دائمــا هذا الخوف... هذا صحيــح... هناك أطفال مثله، متعثرون، لكنهم متفوقون في الحساب...

بل نوابــغ أحيانا – تغرورق عيناها بالدمــوع من جديد – لم أمنح باولو الحب الكافي... ربما هذا هو السبب.

يقول طان:

– ينبغــي ألا تفكري هكذا. إن ذلك بســبب الوراثة... إنه في دم العائلة.

– هل تظن ذلك؟...

– أنا متأكد.

صمت. تقول الأم لابنتها:

– لقد استسلمت. قبل مكتب التحفيظ أن يقتني لي، من جديد، الأراضي العليا مع البنغل. بذلك المال، سأؤدي الضرائب.

ينظر طان إلى الطفلة ويشير إليها برأسه علامة على النفي، وعلى أن ما تقوله

الأم ليس صحيحا. لم تلحظ الأم طان.

صمت. تنظر الطفلة إلى الجدران، تقول:

– هل أخذوا الأثاث؟

– أجــل. والأواني الفضية أيضا. أما الخمســمائة بياســتر المتبقية، فقد احتفظت بها للسفر إلى فرنسا.

تبتسم الطفلة. ثم تصرخ:

– لن نعطيها أبدا إلى الصينيين. لن نؤدي شيئا.

بدورها تبتسم الأم وتصرخ:

– نعــم. انتهى كل هــذا. انتهى – تتكلم فجــأة مثل أبنائها – يمكنهم أن يفتشوا... لا شيء.

يضحكون.

يسـمعهم باولو يضحكـون فيأتي. يجلـس بالقرب من طان، ويتكئ مثله على الحائـط. ويضحك، هو أيضا، من ضحك الأم المضطـرب، واللامحدود. «ضحـك الشـمال»، كان الأخ البكر يقول.

تقول الطفلة:

- لا ينبغـي الاهتمـام بأمـري، سـيأتي، فـي يـوم ما، من يتزوجني.

تداعب الأم رأس الطفلة. يبتسم باولو لشقيقته.

ثم يخرج طان وباولو ليأتيا بالشـاي البارد. من دون سـكر. والـذي تتناولـه الأم كل يوم عمـلا بنصيحة طان، لـ «انتعاش الدم».

الأم والبنت تبقيان بمفردهما.

«تحلم» الأم بهذه الطفلة التي بجانبها، طفلتها.

- صحيـح... إنك تثيرين إعجاب الرجـال. عليك أن تعرفي ذلك. وعليك أن تعرفي أيضا، أنك تثيرين إعجابهم لشـخصك، وليس لثروتك، لأن ثروتك لا شيء.

يكفان عن الضحك.

بعد فترة صمت.

تسأل الأم الطفلة:

- هل مازلت ترينه؟

- أجل - تضيف - طلب إليّ ألا أعود إليه، لكنني سأذهب مع ذلك. لا يمكننا القيام بشيء آخر.

- إذن... فأنت ترينه ليس من أجل المال فقط.

- لا ... - تترد الطفلة - ليس من أجل ذلك فقط.

بقلق وألم، تهمس الأم فجأة:

- هل ستتعلقين به...؟

- أجل، ربما.

- إنه صيني... هذا غريب...

- أجل.

- تشعرين بالتعاسة، إذن.

- قليلا...

يا لها من تعاسة. يا إلهي.

صمت. تسأل الأم:

- هل جئت برفقته؟...

- لا. جئت في الحافلة.

صمت. ثم تقول الأم:

- أود رؤية هذا الرجل...

- إنه لن يريد ذلك.

- لن يكون ذلك من أجل المال، لكن من أجله... المال - تضحك

- لم أحصل عليه أبدا بهذا المقدار.

تضحكان. ضحكة متشابهة، مفعمة بالشباب.

تنظر الطفلة إلى مكان الأثاث الخشبي الذي أخذه المرابون.

تسأل: هل هي حبات بندق وسناجب ما كان منحوتا على أثاث الصالون؟

تقول: لقد نسيت.

تنظر الأم إلى آثار قطع الأثاث على الحائط.

إنها لم تعد تعرف ماذا كان هناك. تقول:

- أظن أنها كانت زهرات نيلوفر وتنانين. يا لها من سعادة، أن نرحل من دون أثاث. من دون أي شيء.

تسأل الطفلة:

- متى سنرحل بالضبط؟

- خلال ستة أيام على أبعد تقدير. إذا لم يحدث أي تأخر مفاجئ. صمت. في الواقع لقد بعت أسرتي إلى الصينيين. كانت في حالة جيدة. إنني أتأسف على أسرة المستعمرات... فالأسرة في فرنسا جد رخوة... لا أنام جيدا في فرنسا... لكن هذا لا يهم...

صمت.

تقول الأم:

- لن أحمل معي شيئا. إنها مهملات. حقائبي جاهزة. لم يبق لي سوى فرز الأوراق، ورسائل والدك وفروضك في اللغة الفرنسية. ثم يجب ألا أنسى، قسائم شراء «الشركة السامرية» من أجل المشتريات الشتوية، فأنت لا تعرفين... سيحل الخريف بسرعة، حين نكون في فرنسا.

غفت الأم. تخرج الطفلة، تتفقد، تتملى، وتتعرف على الأشياء.

طان في المطبخ، ينظف الأرز للعشاء، وبجانبه باولو.

مثل يوم عادي قبل وقوع كل هذه الأحداث منذ العطلة الأخيرة. قبل ثمانية أشهر.

تتفقد الطفلة البيت، بعض قطع الأثاث اختفت من مكانها.

لقد أخذوا من غرفة «دو» آلة الخياطة العتيقة.

أسرة الغرف لاتزال هناك، تحمل البطاقات المكتوبة بالصينية.

تقصد الطفلة الحمام. تنظر إلى نفسها في المرآة. المرآة البيضاوية الشكل، لم تنزع من مكانها.

في المرآة صورة الأخ الصغير وهو يعبر الساحة، تنادي الطفلة عليه بصوت جد منخفض: باولو.

كان باولو قد دخل إلى الحمام من الباب الصغير المفضي إلى النهر.

الدموع في العينين المغمضتين، لقد بكيا معا، من دون كلمة واحدة، مثلما هو الأمر دائما.

كان ذلك أثناء تلك الظهيرة، وأثناء هذا الارتباك المباغت للسعادة، وفي هذه الابتسامة الساخرة الناعمة لشقيقها، حين اكتشفت الطفلة أنها عاشت الحب نفسه.

غفا الأخ الصغير على أرضية الحمام الباردة. وقد تركته الطفلة هناك.

عادت إلى الأم في الصالون.

هناك طان من جديد.

تشرب الأم الشاي المثلج المر. تبتسم لطان وتقول له إنها لن تشرب، أبدا، مثل هذا الشاي في فرنسا.

تسأل أين راح باولو. يقول طان: إنه لا يعرف بالضبط، ربما ذهب إلى المسبح البلدي الجديد.

الطفلة وطان لا يتبادلان النظر منذ عادت هي إلى الصالون.

تســـأل الأم الطفلة: هل مازالت تذهب إلـــى الثانوية. تجيب الطفلـــة بالنفي. باســـتثناء دروس اللغة الفرنســـية، لرغبتها في ذلك.

- ماذا تنتظرين؟

- لا أنتظر شيئا.

تفكرالأم. تقول:

- أجل... إنه التعبير الصائب: لم نعد ننتظر شيئا.

تداعب الطفلة وجه أمها، تبتسم لها.

هنا، تحدث الأم الطفلة عمـــا يفصل بينهما، عما كان، دائما يفصل بينهما.

- لم أقل لك هذا أبدا... ولكن عليك أن تعلمي ذلك... لم أكن أملك الإمكانات لدراستك... ثم إنني كنت جدية أكثر من اللازم، كنت كذلك زمنا طويلا... هكذا فقدت طعم اللذة...

- ابقي كما أنت. لا تصغي إلي أبدا. عديني بذلك.

تبكي الطفلة. وتعدها:

- أعدك بذلك.

تبتعد الأم عن الموضوع، وتتكلم عن الصيني:

- يقال إنه سيتزوج...

لا ترد الطفلة. تقول الأم بلطف:

- أجيبيني. إنك لا تجيبينني أبدا.

- أجل، أظن أنه ســـيتزوج. هنا، في ساديك... في هذه الأيام بالضبط إلا إذا أفســـد كل شيء في الدقائق الأخيرة، الخطوبة، وأوامر والده...

تصاب الأم بالذهول. تصرخ:

– هل تظنينه قادرا على ذلك؟

– لا.

تبدو الأم مرهقة، لكنها تقول بهدوء:

– إذن ليس هناك أي أمل...

– لا أمل.

الأم شاردة وحيدة، لكنها هادئة. تقول:

– لا ...معك...لقد نشأ الأبناء الصينيون على احترام الآباء... إن هؤلاء الآباء كآلهة بالنسبة إليهم. هذا مقزز. لكنني أستطيع، ربما، التحدث معه، للمرة الأخيرة... للمرة الأخيرة، أليس كذلك؟ سأشرح له... ماذا سأخسـر... سأشرح له وضعنا بكل وضوح، وأطلب منه ألا يتخلى عنك، على الأقل...

– لن يتخلى عني... أبدا.

تغمض الأم عينيها كما لو أنها ستغفو.

تقول بعينين مغمضتين:

– كيف تستطيعين أن تعلمي ذلك؟

– أعرف ذلك... كما نعرف أننا، في يوم من الأيام، سنموت.

تبكي الأم في صمت. تنطق كلماتها بين الدموع (*):

– يا إلهي، يا لها من قصة... وأنت، هل ستنسينها؟

تجيب الطفلة غير راضية:

– أنا... لا أعرف، كما لا أستطيع أن أقول لك ذلك.

(*) تهتم المؤلفة كثيرا بهذه الأحاديث «المختلطة» لكن ذات الطبيعة «المستعادة». يمكننا الكلام هنا عن «طبقات» من الأحاديث المتجاورة.

تنظر إليها الأم نظرة حيوية، شــابة. وتقول، وقد تخلصت من كل أمل:

- لا تقولي شيئا، إذن.

تسأل الأم ابنتها:

- هل هناك أشياء أخرى لم تخبريني بها؟

تخفض الأم بصرها، ثم تجيب نفســها... لم يعد الأمر مهما. تقول الأم إن هذا صحيح. ولم يعد مهما أبدا.

يعود باولو. تسأله الأم أين كان. يقول كنت في المسبح البلدي. إنها أول كذبة يتلفظ بها الأخ الصغير.

الطفلــة وطــان يبتســمان. الأم لا تعرف شــيئا. يجلس الأخ الصغير بجانب طان.

«يندد» طان بشكل طبيعي بسلوك الأم مع ابنها البكر. تصغي الأم لذلك كشــيء غريب، تبدو أنهــا تعتبر ذلك مهما وطبيعيا. يشير إليها طان بإصبعه ويقول:

- لقد أعطيته خمســمائة بياســتر زيادة. كانت مضطرة إلى ذلك. قالت إذا لم تفعل ســيقتلها، سيقتل أمه. وهذا صحيح... إنها تعرف.

تنظر الطفلة إلى الأم. تبدو هذه الأخيرة غير مهتمة، ومنافقة، علنا.

تسأل الطفلة طان عما فعل:

- ماذا فعلت؟

تصغي الأم مهتمة. يجيب طان:

- كتبــت لوالده أن الابن البكر ســرق مــا تبقى من مال. بعد

ذلك أجابني الأب بأن أذهب لأراه. ذهبت. أعطاني، مرة أخرى، خمسمائة بياستر من أجلها. أخذتها. وهكذا أُصلح كل شيء. رحل بيير، ولم يعد بإمكانه سرقتها.

تبدو الأم كما لو أنها نائمة، ضجرة من نفسها، ومن كل الحكايات بما فيها حكايتها، التي وجدت نفسها متورطة فيها، من دون أن تعرف بوضوح كيف تم ذلك،

وبأي طريقة.

يضحك باولو بتخابث، كما لو كان أمام موقف هزلي.

يسأل:

- ووالده، هل دفع كل شيء.

تنظر الطفلة إلى الأم. تذهب وتقبلها. تنفجر الأم ضاحكة في صمت. صرخات صغيرة تصدر من جسدها. ثم يضحكون جميعا. إنها نوبة ضحك عائلية. إنهم فرحون لأن الأخ الصغير تكلم من دون أن يكون قد طلب منه أحد ذلك.

تسأل الطفلة: هل أدى الوالد كل شيء...هكذا... من دون شروط؟

يضحك طان ويقول إن الشرط الوحيد للوالد هو أن يرحلوا من المستعمرة.

يضحكون جميعا حتى تدمع عيونهم، وعلى الخصوص باولو. يواصل طان:

- يكتب والده إلى والدتنا ليخبرها بأن ابنها ترك ديونا في كل من محششتي ساديك وفين- لونغ. ولأنه قاصر، عمره ثماني عشرة سنة، فالأم هي المسؤولة عن أداء ما بذمة ابنها من ديون.

وإذا لم يؤد والد الصيني، فوالدتنا ستفقد عملها، ولن يبقى لها دخل، فتذهب، في النهاية إلى السجن.

أصغت الأم باهتمام. ثم، فجأة، ها هي تشرع في الضحك من جديد، تصرخ من الضحك بشكل مخيف. تقول:

– وإذا لم أقبل العودة إلى فرنسا؟

لا أحد يجيب الأم. كما لو أنها لم تقل شيئا.

إنها في الواقع، لا تقول شيئا.

بـ «لغة طان» نفسها، تقول الطفلة لطان:

– الوالد، هل أدى جميع الديون، شريطة أن نرحل، هذا ما قاله؟

– بالضبط.

يضحك الأخ الصغير، يردد هو الآخر ببطء:

– شريطة أن نرحل.

يضحك طان مثل طفل. يقول:

– هكذا...فالخمسمائة بياستر، التي اختلسها بيير، أداها عنه الوالد، من دون ذلك، لن يستطيع بيير التدخين، والحاجة إلى ذلك رهيبة، النوم طيلة اليوم، بإمكانه أن ينتحر. لهذا أعطاه الوالد الخمسمائة بياستر. (لحظة زمنية) بعد ذلك كتب الوالد إلى الأم رسالة ثانية باللغة الفرنسية ليقول لها إن عليها أن ترحل، فقد تعب من حكاية الابن والأفيون، والمال...وما إلى ذلك...

ينفجرون ضحكا. الأم، وطان أيضا، والأخ الصغير والطفلة.

– وفي الرسالة– يواصل طان: توجد أيضا خمسمائة بياستر من أجلها. يقول الوالد في الرسالة بألا تخبر الأم بذلك. لأن

ابنـــه، لا يعرف شـــيئا. لا يريد أن يعرف ابنـــه حكاية المال الذي قدمه للأم.

مبتسمة، تسأل الطفلة طان:

– كيف عرفت كل هذا؟

– لأنه...النـــاس، أخبروني بذلك. وأنا لدي ذاكرة قوية عنكم جميعا...حتى بالنســـبة إلى والد الصيني. أحيانا يروي لي قصة عائلته حين هربت من الصين. أنا أغفو، وهو يواصل.

الكل يضحك مع طان.

ثم تكـــف الأم عن الإصغـــاء. الكل يتكلم بصـــوت منخفض. فالماضي يجعل الأم تشعر بالسأم.

بعد ذلك تذهب الطفلة إلى الساحة. تتكئ على سور الحديقة، يلحق بها طان، ولأول مرة، يقبلها ويقول إن باولو أيضا هو حبها. تقول إنها تعرف. تنطق اسمه:

– طان.

تقول له إنه ســـيذهب إلى ســـيام وأيضا إلى مكان آخر، في أوروبا، في فرنسا، في باريس.

من أجلي: تقول.

– أجـــل، من أجلك. أجل، حين ســـترحلون، ســـأعود أنا، إلى بري– نوب ثم إلى سيام.

– أجل أعرف ذلك. قلت هذا لباولو أيضا.

– لا. قلت هذا فقط للصيني، ولك.

– لماذا الصيني...؟

تشـــعر الطفلة بالخوف، تســـأل طان، ألن يحاول العثور على

والديــه، ويحكي...يقول طان إنه لم يفكــر أبدا، منذ تحدثا عن ذلــك، هي وهو، إلا فــي إخوته وأخواته الصغــار، لكن لا يمكن العثور على أطفال صغار في غابة سيام. أبدا.

تعود الطفلة إلى سؤالها:

- لماذا حدثت الصيني عن هذا؟

- لرؤيتــه حين تكونــين قد رحلت. لنصبــح أصدقاء. لنتكلم عنك، وعن باولو، وعن أمنا - يبتســم- لنبكي معا من الحب من أجلك.

ســيارة B12 في الطريق، يقودها طان. الطفلة بجانبه، إنه يذهب بهــا من جديد إلى ســايغون، عليها المرور بالشــقة قبل الذهاب إلى داخلية ليوطي. تشــعر الطفلة بالخوف. تقول ذلك لطان. يقول طان إنه أيضا خائف من أجل الصيني.

في شولين.

ســيارة الليون- بولي هناك مع السائق الذي يدنو من الطفلة، ويبتســم لها، يقول إن السيد ذهب ليلعب وســيعود. وإن الشقة مفتوحة، وإنه هو الذي أمره بذلك في حالة قدومها قبله.

طان عاد إلى ساديك من جديد.

تدلف الطفلة إلى الغرفة. تنتظر. كي لا تنسى ربما. ثم تذهب لتســتحم، ثم تتمدد على السرير في مكانها، على طول الحائط، هناك، حيث الرائحة الصينية للعسل والشاي. ثم تغفو.

حين يعود الصيني. يكون النهار قد طلع.

يجلس بجانبها. يتأملها ثم يقول بلطف:

- كم تبدين صغيرة.

لا تجيب.

تسأل بعينين مغمضتين:

- هل رأيتها؟

يقول أجل.

تقول:

- هل هي جميلة؟

- لا أعــرف بعد. لكنني أعتقد ذلــك. أجل إنها أكبر، وقوية، أكثر منك بكثير. (لحظة صمت). عليها أن تعرف بقصتنا.

- كيف ستعرف؟

- ربما عن طريق خادمات ســاديك الصغيرات. لقد قلت لي ذلك: إنهن صغيرات جدا، في عمرك، خمســة أو ســتة عشــر عامــا، وهن فضوليات. يعرفن كل ما يقع فــي كل البيوت. وفي كل المواقع.

- وأنت، كيف ستعرف ذلك؟

- لا أعرف.

تقول الطفلة، إنها بداية الزواج...

يتردد الصيني قبل أن يقول:

- من دون شك، أجل. لم أتحدث معها.

- هل يكون الأمر هكذا في الصين دائما؟

- دائما ومنذ قرون.

تقول:

- لا يمكننا أن نفهم ذلك، نحن، الأجانب...تعرف هذا...

- أجل. نحن، يمكننا أن نفهم، لكننا لا يمكن أن نفهمكم، حين

تقولون إنكم لا تفهمون.

يصمت الصيني، ثم يجيب:

- إننا نجهل بعضنا البعـض. وهذا أيضا، يمكن الكلام عنه، وفهمه. طريقة الصمت، والنظر أيضا.

- هل عادت إلى ماندشوري.

- لا. لقد رحلت عنها للأبد. إنها تقيم عند خالتي... في ساديك... سيصل والداها غدا لإعداد غرفة العريسين، الزفافية كما تقولون.

- نعم.

تتمدد الطفلة على الأريكة. ويدخن الصيني الأفيون وهو شارد الذهن.

تقول: لم نعد نسمع الأسطوانة الأمريكية، ولا الفالس الذي كان يعزفه الشاب على البيانو. يقول الصيني إنه ربما يكون قد رحل عن الشارع.

ثم يطلب الصيني من الطفلة أن تأتي إلى جانبه.

تأتي إلى جانبه. تقول:

- دخنت كثيرا.

- لا أفعل شيئا غير هذا. انعدمت لدي الرغبة والحب. هذا رائع، لا يصدق.

- كما لو أننا لم نتعارف أبدا، من قبل.

- أجل. كما لو كنت ميتة منذ ألف سنة.

صمت.

تسأل:

- متى سيكون الزواج؟

- ستكونين قد رحلت إلى فرنسا. لقد تحرى والدي لدى مكتب الإرساليات البحرية. أنتم، الثلاثة، في لائحة رحلة الأسبوع الأول قبل الزواج. لقد حدد تاريخ الزواج قبل الأوان.

- كنت لن أقبل بذلك، حدوث الزواج، وأنت لاتزالين هنا.

تسأل الطفلة: هل علم بوساطة والده بسرقات الأخ البكر، وبكل مشكلاته مع الأم.

يقول إنه لا يعرف، وإن هذا لا يهمه، وإن هذا لا شيء بالنسبة إلى والده. إنها سرقات صغيرة...لا يتم الحديث عنها حتى.

تقول إنهم سيعودون ذات مرة، ربما فيما بعد. بعد سنوات. مرة، أو مرات عديدة. يسأل: ماذا تنفع رؤية أحدهما للآخر؟ تقول:

- للاطلاع.

- على ماذا؟

- على ما وقع في حياتنا، أنت وأنا...

صمت.

ثم تسأله، متى رأى خطيبته أول مرة؟ يقول:

- في صالون والدي. وفي الشارع أيضا. حين جاءت عند والدي لكي أراها في حضوره.

- أخبرتني بأنها جميلة.

- أجل، إنها جميلة. تستحق أن ترى. البشرة بيضاء وناعمة، تشبه بشرة نساء الشمال. إنها أكثر بياضا منك. لكنها قوية جدا. أما أنت فضئيلة الحجم، ونحيفة... أخاف من ألا أستطيع.

- لا تستطيع رفعها.

- ربمـــا. لكن وزنك أنت مثل وزن حقيبة... بإمكاني أن أرمي بك فوق السرير مثل حقيبة صغيرة.

تقول الطفلة إن كلمة «قوية» ستضحكها في المستقبل.

- ليـــس لها الحـــق بعد، في أن تنظر إلـــي. لكنها رأتني، إننا نعرف هذا. هي شـــديدة الجدية وفق العرف الصيني. فالنســـاء الصينيات يقمن بـــدور المرأة المتزوجة حين يصبح لهن الحق في رؤيتنا، في نهاية فترة الخطوبة تقريبا.

ينظر إليها بكل ما أوتي من قوة. يمســـد وجهها بيديه ليراها حتى لم يعد يتعرف عليها. تقول:

- كنت أود لو نتزوج. لو نكون عاشقين متزوجين.

- حتى نتألم.

- أجل حتى نشعر بأكبر قدر من الألم.

- حتى نموت بسبب ذلك، ربما.

- أجل. وربما تموت زوجتك أيضا بسبب ذلك، مثلنا.

- ربما.

- بســـبب هذا العذاب الذي أســـببه لها ولك، ستتزوجان من خلالي أيضا.

- إننا كذلك، متزوجان من خلالك.

بصمت، وهدوء، تبكي. تقول إنها لا تســـتطيع أن تمنع نفسها من البكاء...

يلوذان بالصمت. صمت طويل. لم يعودا يتبادلان النظرات.

تقول:

- ثم يكون هناك أطفال.

يبكيان. يقول:

- لن تتعرفي أبدا على أطفالها. ستتعرفين على كل أطفال الكرة الأرضية، إلا هؤلاء. فلن تتعرفي عليهم أبدا.

- أبدا.

تنضم إليه. بحركة خفيفة يتيح لها مكانا بجانبه تبكي، تسيل دموعها.

يقول:

- لكنني لن أجد غيرك، طيلة حياتي.

تنتصب واقفة.

تصرخ:

تقول إنه سيكون سعيدا، تريده أن يكون كذلك، إنها تعرف أنه سيحب هذه المرأة الصينية. تقول: أقسم لك.

ثم تقول إنه سيكون هناك هؤلاء الأطفال، وإن الأطفال جميعهم، يمثلون السعادة، فهم ربيع الحياة الحقيقي.

وكما لو أنه لم يسمعها، ينظر إليها، وينظر. ثم يقول:

- أنت حبي الذي أملكه.

يبكي على ربيع الأطفال هذا، الذي لن تراه، هي، أبدا.

يبكيان.

تقول إنها لن تنسى رائحته أبدا.

يقول إنه لن يعرف مثل هذه السعادة أبدا. يقول: إنه يائس، مجنون، وسيقتل نفسه.

من جديد، يجثم الصمت الطويل إلى نهاية الليل، يهطل مطر

قوي، يتحطم على المدينة، ويغرق الشوارع، والقلب.

يقول:

- إنه المطر الموسمي.

تسأل هل هذه الأمطار القوية صالحة لمزارع الأرز.

يقول إنها أفضل الأمطار.

ترفع بصرها إلى هذا الرجل. ومن خلال الدموع، تواصل النظر إليه. تقول:

- وحبي، سيكون هو أنت.

- أجل. حب حياتك الوحيد.

المطر.

يعبق عطره الغرفة.

رغبة قوية جدا، تجتاح العشيقين، رغبة من دون ذاكرة.

يغفوان.

يستيقظان.

يغفوان من جديد.

يقول الصيني:

- ها هو المطر، هنا، برفقتك، مرة أخرى... ابنتي الصغيرة... طفلتي الصغيرة...

تقول إن هذا صحيح، فالمطر، ومنذ تعارفهما، يهطل لأول مرة، مرتين بالليل.

تسأله هل يملك مزارع أرز. يقول لا. أبدا، لا يملك الصينيون مزارع أرز. تسأله عن التجارة التي يمارسها الصينيون. يقول: تجارة الذهب، وبالخصوص تجارة الأفيون، وتجارة الشاي أيضا،

والخزف. والكك الأزرق الصيني. «أزرق الصين».

يقول: هناك أيضا بناء «تجزئة البيوت» وعمليات البورصة. وإن البورصة الصينية حاضرة في كل مكان في العالم بأسره، وإن وجبات المطبخ الصيني منتشرة هي أيضا في كل مكان في العالم، حتى أعشاش الخطاطيف والبيض المحضون لمائة سنة.

تقول:

- وحجراليشم أيضا..

- أجل، والحرير أيضا.

ثم يصمتان.

ثم ينظر أحدهما إلى الآخر.

ثم يضمها إليه.

يسأل: ماذا؟

- أنظر إليك.

تنظر إليه طويلا. ثم تقول له إن عليه، في يوم ما، أن يروي لزوجته قصة حبهما. بين زوجها وفتاة مدرسة ساديك الصغيرة. عليه أن يروي كل شيء، السعادة والمعاناة، اليأس والفرح. تقول: حتى يروى هذا، أيضا وأيضا، من طرف الناس، ومن طرف أي أحد، حتى لا تنسى تفاصيل القصة، حتى يبقى منها الأهم، بما في ذلك أسماء الأشخاص، والشوارع، وأسماء المدارس، ودور السينما، يجب قول كل ذلك، حتى أغاني الخدم بالليل في داخلية ليوطي، واسمي هيلين لاكولين، وطان، يتيم غابة سيام.

كان الصيني قد سأل لماذا زوجته؟ لماذا يروي ذلك لها وليس لأناس آخرين.

قالت: لأنها، بواسطة ألمها، ستفهم القصة.

وسأل أيضا:

- وإذا لم يكن ثمة ألم؟

- عندها، سُينسى كل شيء.

كان في المقعد الخلفي للسيارة السوداء، المركونة على طول سور الميناء. بالهندام نفسه بذلة من قماش الحرير الهندي. الخادم في حالة نوم.

لا ينظر أحدهما إلى الآخر.

يرى أحدهما الآخر فقط.

دائما الحشد نفسه على الأرصفة، أثناء إقلاع سفن الركاب.

يزعق أمر من مكبرات صوت القاطرات.

تشرع المراوح في الدوران، تذرع مياه النهر.

ضجيج رهيب.

في هذه اللحظة يشعر المرء دائما بالخوف. الخوف من كل شيء، الخوف من ألا يرى هذه الأرض الجاحدة مرة أخرى، ومن أن ينسى سماء الأمطار الموسمية هذه.

يتململ يسارا على مسند المقعد الخلفي من أجل اغتنام بعض الثواني، ليراها لآخر مرة في حياته. بينما هي لا تنظر إليه.

ثم ها هي موسيقى الفالس اليائس، التي على الموضة، تنبعث من الشارع. دائما، موسيقى الرحيل نفسه، النوستالجية البطيئة، وهي تهدهد ألم الفراق.

حتى هؤلاء الوحيدون، والذين ليس برفقتهم أحد، يقتسمون المأساة الغريبة لـ «هجر» أو «ترك» أحد ما، إلى الأبد، لأنهم

خانوا القدر الذي اكتشفوا أنه قدرهم في لحظة فقدانه...

يُلقي نظرة إلى جسور الدرجة الأولى. ليست هناك. إنها على الجسر نفسه لكنها بعيدة مع باولو الذي تبدو عليه سعادة السفر. إنه حر، شقيقي الصغير المحبوب، كنزي، الذي خرج من فزعه لأول مرة في حياته.

ضجيج المحركات يتعاظم ليصبح مُصِمًّا للآذان.

مازالت تشيح بوجهها ولا تنظر إليه.

حين فتحت عينيها لتراه، لم يكن هناك، ولا في مكان آخر. لقد رحل.

تغمض عينيها.

لن تراه يعبر.

في سواد العينين المغمضتين، تستعيد رائحة الحرير، قماش الحرير الهندي، والشاي، والأفيون.

فكرة الرائحة. رائحة الغرفة، ورائحة العينين الآسرتين اللتين تخفقان تحت قبلاتها.

على الأرصفة، الصياحات نفسها، والأسماء، إنها تراجيديا الرحيل عبر البحر.

لقد اختفى في لمح البصر، بعد أن عبرت السفينة خط الرصيف، وحين كانت تبحث عن الأخ الصغير على الجسر.

أزيل معبر الركاب. ورفعت المرساة. وأصبحت السفينة جاهزة للإقلاع.

هي الآن تطفو فوق النهر.

لقد غادرت السفينة اليابسة.

صياح.

السفينة تطفو على مياه الحوض.

يجــب دعمها، ووضعها علــى القناة، فــي الزاوية بين البحر والنهر.

ببــطء وروعة، تذعن الســفينة إلى الأوامــر. تبحر في خط مستقيم باتجاه معين، غير واضح وسري، إنه اتجاه البحر.

الســماء لاتزال مملــوءة بالأدخنـــة الســـوداء، أدخنة عجيج الصافرات.

ثــم، وفي تلك الســاعة من ذلك اليوم، وطيلــة حياة الطفلة، سيصبح اتجاه الشمس معكوسا.

إنها تتذكر.

أمامها، كانت تلك الفتاة السمراء المتكئة على درابزين السفينة، والتي كانت تنظر هي الأخرى إلى البحر، ومثلها كانت تبكي.

إنها تتذكر ذلك بعد أن نسيته.

من خلف الباخرة، جاء شاب يرتدي بذلة داكنة على الطريقة الفرنســية، ومــن عنقه تتدلى آلــة تصويــر. كان يلتقط صورا للجســور. ينحني على الدرابزين ويصور أيضا حيزوم السفينة. ثم يصور البحر. ثم لا شيء.

نظر إلى الفتاة السمراء التي كفت عن البكاء.

كانت ممددة على كرســي طويــل، نظرت إليه، ابتســما، ثم انتظرت.أغمضــت عينيها، وتظاهرت بالنوم. لم يتوجه الشــاب نحوهــا. واصل نزهته على الجســر.عندها، قامــت الفتاة من الكرســـي، واقتربت منه. اقتــربت من الشاب. راحــا يتكــلمان.

ثم راحا يتأملان البحر. ثم مشيا معا فوق جسر الدرجات الأولى.

الطفلة لم تلحظهما.

تتمدد على أحد الكراسي. تبدو نائمة.لا. إنها تنظر.

على أرضية الجسر، وعلى جوانب السفينة، وعلى البحر، ومع مجرى الشمس في السماء ومسارالسفينة، ترتسم، وتتشكل، وتتكسر، بالبطء نفسه، كتابة غير مقروءة، وممزقة الظلال والزوايا، مع خطوط الضوء المنكسر والمنعكس على الزوايا، والمثلثات وفق هندسة هاربة تتقوض على هوى ظل أمواج البحر ثم تحاول ذلك، من جديد، من دون كلل.

تستيقظ الطفلة مع دخول السفينة أعالي البحار واتجاهها نحو الغرب، وخليج سيام.

بوضوح، ترى السفينة تبحر ببطء، وقد تقلص علوها، بالبطء نفسه، ثم تغرق في انحناء اليابسة.

كانت الطفلة قد نامت على الكرسي. ولم تستيقظ إلا أمام البحر وهي حرة. ثم انخرطت في البكاء.

بجانبها، كان المسافران قد عادا لفورهما، ينظران إلى البحر، ومثلها، يبكيان.

مازالت الحرارة مرتفعة. ولم تصل السفينة بعد، إلى منطقة رياح أعالي البحار الباردة، المالحة والحادة الطعم.

ستصلها السفينة، بعد الأمواج الأولى، وبعد الدوران على أقصى الدلتا، ثم اجتياز آخر مزارع الأرز في سهل الأسل، ثم رأس كامو، أقصى نقطة في القارة الآسيوية.

ينطفئ الضوء في الجسور، ومازال بعض المسافرين مستيقظين أو غافين على الكراسـي الطويلة، باستثناء بار الدرجات الأولى، الـذي يظل ليل نهار، وحتى وقت جـد متأخر في الليل، ومعظم الأوقـات، حتى الصباح. هناك بعض المسـتيقظين يلعبون الورق والنـرد ويتكلمون بصـوت مرتفع، وهم يضحكـون ويتلاجون، ويكرعون كؤوس الشـراب الممزوج بالصـودا، والمارتيل- بيريي، والبيرنو.

بـار الدرجات الأولى هـذا، كان هو المكان المطمئن للسـفر. والمكان السامي للنسيان الطفولي.

تقصد الطفلـة البار لترى. لا تدخـل بطبيعة الحال. تذهب إلى الجسـر الآخر. هناك لا يوجد أحد. المسافرون على ميسرة السـفينة يترقبون مجيء رياح أعالي البحار. في ذلك المكان من السـفينة لا يوجد إلا فتى يافع، بمفـرده. يتكئ على الدرابزين. تمر خلفه. لم يلتفت نحوها. لم يرها، من دون شك. من الغريب ألا يكون قد رآها.

أما هي، فلم تستطع رؤية وجهه.

أجل، كان يرتدي سترة بلازير زرقاء. بخطوط بيضاء. وسروالا أزرق.

قصدت الطفلة الدرابزين. لأنهما كانا وحيدين في هذا المكان من السفينة وعلى هذا الجسر الخالي، كانت ترغب في الحديث معـه. لكن لا. لقد انتظرت لحظة. ولم يلتفت. كان يرغب في أن يظل بمفرده. انصرفت الطفلة.

لم تنس الطفلة أبدا هذا الغريب، لأنها، من دون شـك، كانت

ترغب في أن تروي له قصة حبها مع صيني من شولين.

في نهاية الجسر، وحين التفتت، لم يكن هناك.

تنزل باتجـاه الممرات. مازالت تبحث عـن القمرية المزدوجة حيث مرقداهما، هي والأم.

تتوقـف عن البحث، بغتة. نعرف أن هذا من دون فائدة، لأنها لن تعثر على أمها.

تصعد إلى جسر النزهة.

لم تعثر الطفلة على الأم في الجسر الآخر.

ثم تلمحها من بعيد، هذه المرة، مازالت نائمة على أحد الكراسي الطويلة، وقد انحنت قليلا إلى الأمام. لم تحاول الطفلة إيقاظها. تعـود مرة أخرى إلى الممرات. تبقى هنـاك تنتظر. ثم تعود مرة أخـرى. تبحث عن أخيها الصغير باولـو. ثم تتوقف عن البحث وتعود إلى الممرات. تتمدد لتنـام هناك، أمام القمرية المزدوجة، فقد نسيت الأم أن تعطيها المفتاح الآخر. تبكي، ثم تغفو.

كان أحـد مكبرات الصوت قد أعلن أن اليابسـة اختفت عن الأنظار. وأن السـفينة فـي أعماق البحر. تتـردد الطفلة، قبل أن تصعـد إلى السـطح. اضطراب أمواج خفيـف يأتي مع ريح البحر.

يحـل الليـل على السـفينة. تشـعل الأضواء في الجسـور، والقاعات، والممرات. لكن البحر يظل معتما، إنه في عمق الليل. السـماء زرقاء في عمق الليل الأسود، لكن لـون السـماء الأزرق لا ينعكس على الماء الساكن والقاتم.

المسافرون يتكئون من جديد على درابزين السفينة. يتوجهون

ببصرهم إلى حيث لا يرى شيء. إنهم لا يريدون أن يفوتوا فرصة وصول أمـــواج أعالي البحار الأولى، حاملـــة معها رطوبة الرياح التي تنهار دفعة واحدة على البحر.

مازالـــت الطفلة تبحث عن الأم. تعثر عليها، هذه المرة، نائمة، نومة مهاجرة تبحث عن أرض للجوء.

تدعها نائمة.

ثم يحل الليل. في دقائق معدودة كان هناك.

مكبـــر الصوت يعلن أن خدمات المطعم ســتبدأ خلال عشـــر دقائق.

السماء زرقاء، والريح منعشة، الناس يترددون لحظة، قبل أن يلتحقوا في النهاية بالمطعم آسفين.

الأم هنـــاك، تجلـــس إلى إحـــدى الموائد. دائما قبـــل الأوان كعادتها. تنتظـــر ابنيها. كانت قد ذهبت إلى قمرتها، لتعود وهي ترتدي فســـتانا من الحرير مـــن صنع «دو»، ذا لـــون أحمر قان بثنيات صغيرة تجعل الفســـتان يرتفع قليلا من كل جانب. كانت قد صففت شـــعرها، ووضعت على وجهها بـــودرة خفيفة، وعلى شفتيها القليل من أحمر الشـــفاه. وحتى لا يراها أحد، اختارت الأم مائدة لثلاثة مدعوين في إحدى الزوايا.

كانت الأم دائما تتأثر بهذه الأسفار البحرية. هنا انتبهت إلى أنها لن تستعيد مرة أخرى وإلى الأبد، تلك التربية التي افتقدتها قروية الشـــمال التي كانت، قبل أن تـــذرع البحار، لترى، في كل الجهات، كيف هي الحياة.

لم تنس الطفلة أبدا الأمسية الأولى على هذه السفينة.

احتجت الأم بصوت منخفض، وقالت إذا لم يحضر باولو لتناول العشاء، فإنها ستثير بلبلة. ثم طلبت الأم من النادل أن يتمهل قليلا في تقديم الطعام. رد النادل بأن خدمة المطعم تتوقف في الساعة التاسعة، لكنه، مع ذلك، سينتظر قليلا. شكرته الأم كما لو كان قد أنقذ حياتها.

في صمت، انتظرنا أكثر من ربع ساعة.

كان المطعم مملوءا عن آخره. وصل باولو وبرفقته الفتاة التي كانت مع المصور على الجسرعند إقلاع السفينة.

لمح باولو شقيقته من دون أن ينظر إليها. تظاهرت الأم بأنها لا تهتم إلا بالناس الموجودين في المطعم.

ينظر باولو إلى شقيقته نظرة متوسلة. تفهم أنها لا يجب أن تتعرف عليه. تنظر إليها الفتاة الشابة أيضا. لقد تعرفت على فتاة الجسر التي كانت تبكي بمفردها، تبتسم لها.

مازالت الأم تتأمل المطعم الغاص بالناس، غير مدركة كالعادة، ما يدورحولها، منذهلة، وساخرة دوما.

كانت الطفلة قد نظرت إلى الأم حين مر باولو، ثم ابتسمت له.

يلوذون بالصمت، بينما تقدم لهم وجبة العشاء.

في تلك اللحظة، منذ ذلك المساء، بفجائية المصيبة نفسها، بزغ الرعب. صاح بعضهم. لا كلام، بل صرخات ذعر. نحيب، صرخات وعويل، وبقدر ما كانت المصيبة كبيرة، فلا أحد استطاع إعلان ذلك أو قوله.

تكاثر الصياح في كل مكان. من الجسور، ومن حجرة المحركات، والبحر، والليل، من السفينة بكاملها.

الصرخات معزولة في البداية، ثم متجمعة، في جلبة واحدة، فظة ومفزعة.

الناس يجرون في كل اتجاه، لمعرفة ما حدث.

البكاء في كل مكان.

ثـم تخفف السـفينة من السـرعة. بكل قواهـا، تخفف من السرعة.

أحد ما يصرخ في الجميع بأن يصمتوا.

يسود الصمت في السفينة.

في هذا الصمت، تسمع الكلمات الأولى، ثم تعود الصرخات، خافتة تقريبا، وصماء، بفعل الفزع والرعب.

لا أحد يستطيع أن يسأل ماذا حدث.

بوضوح، يخترق الصمت صوت ما:

– لقـد توقفـت السـفينة... صـوت المحـركات لـم يعـد مسموعا...

ثم يعود الصمت مـرة أخرى. يصل القبطان. يتكلم في مكبر صوت. يقول:

– لقد وقع حادث مفجع في البار... أحد الفتيان قذف نفسه في البحر.

يدخل زوجـان إلى المطعم. الـزوج بلباس أبيـض، والزوجة بفستان أسود. إنها تبكي. توجه كلامها للجميع:

– أحدهم رمى بنفسـه في البحر... لقد مـر من أمام البار جاريـا وقذف بنفسـه من خلال الدرابزين... كان عمره سـبعة عشر عاما.

يصعدان إلى جسر السفينة. أصبح المطعم فارغا. كل المسافرين فوق الجسور. بكاء صامت عوض الصراخ. لقد أصاب الذعر الجميع. إنه أكثر عمقا ورهبة من الصراخ.

الأم والطفلة تبكيان وقد كفتا عن تناول الطعام.

الكل غادر المطعم. الناس يتحركون في كل الاتجاهات من دون وجهة مقصودة. النساء يبكين، كما يبكي أيضا بعض المسافرين في مقتبل العمر. الأطفال جميعهم صعدوا مع آبائهم وقد احتفظت بهم أمهاتهم بالقرب منهن، أو ضممنهم إلى صدورهن.

لم يبق في المطعم إلا بعض الأشخاص. إنهم الأشخاص أنفسهم في العالم كله: هؤلاء الذين يشعرون بالجوع، على الرغم من ذلك، والذين يريدون أن يتناولوا عشاءهم، والذين ينادون على النُّدُل بغلظة ويخاطبونهم بأنهم لهم الحق في أن يتناولوا العشاء، وفي أن تقدم لهم الخدمة، لأنهم أدوا ثمن ذلك. إنهم هؤلاء الذين لا يرد عليهم أحد من عصرنا.

غادر الكل المطعم.

من بعيد، يأتي صوت رجالي طالبا من الجميع النزول حيث زوارق الإنقاذ، والابتعاد عن الدرابزين.

يواصل الناس رغبتهم في الاطلاع (*).

- سبعة عشر عاما... والده يشتغل صرافا ... صديقة للعائلة بالدرجة الثانية قالت للقبطان: لم يجدوا شيئا في قمرية الفتى... لا رسالة تركها لوالديه ... ولا أي شيء ... كان عائدا إلى فرنسا، ومتفوقا في دراسته. لقد كان فتى لطيفا.

(*) لقد اختلطت الأصوات كما في صالونات إنديا سونغ.

صمت. ثم تبدأ الشائعات:

- لن يعثروا عليه...

- إنه بعيد جدا الآن...

- تحتاج السفينة إلى عدة كيلومترات كي تتوقف...

تخفي الطفلة وجهها، وتخاطب أمها هامسة:

- لحســن الحظ أن باولو جاء قبل الحادث. وإلا كنا متنا من الخوف.

تخفي الأم وجهها أيضا، وتقول هامسة:

- يجب أن نشكر الرب ونطلب مغفرته.

تختلط الأصوات من جديد:

- ... ستقلع السفينة عند الفجر. وهذا هو الأصعب والرهيب ... في تلك اللحظة... التخلي عن الأمل...

- ... على السفن أن تنتظر اثنتي عشرة ساعة، قبل أن تقلع من جديد، أو عند شروق الشمس... لا أعرف...

- البحر فارغ ... الصباح... كم هذا مرعب ...

- شـــيء بغيض... فتى يرفض أن يعيش ... لا شيء أصعب من هذا.

- لا شيء. هذا صحيح.

- يخيم صمت مطبق على السفينة المتوقفة.

مازال الناس يأملـون في زوارق الإنقـاذ. ويتعقبون بعيونهم المشاعل التي تذرع سطح البحر.

مازال هناك أمل، يتهامس البعض:

- ... ينبغـي ألا نفقـد الأمل. فمياه البحـر دافئة في هذه

المناطــق... وهو بإمكانه الســباحة لمــدة طويلــة... إنه لايزال شابا...

- هل ستبقى المياه دافئة طوال الليل؟
- أجل. كما أن الريح ليست قوية.
- والرب موجود... يجب ألا ننسى ذلك.
- هذا صحيح.

يتواصل العويل، ثم يتوقف.

- الأسوأ هو إذا كان هو يرانا، ولا يرغب في شيء.
- لا حيا ولا ميتا...
- هكذا، نعم.
- وينتظر، محاولا معرفة ماذا سيفعل ليصل السفينة.

بفجائية الحادث نفســها، تغمر الموســيقى جســور السفينة، والقاعــات والبحر. كانت الأنغام آتية من قاعة الموســيقى. «إنه شخص ما، لا يعلم بما وقع»، قال أحدهم.

يقول أحدهم إنه سبق له أن سمع هذا العزف على البيانو من بعيد جدا، قبل الحادث، كما لو كان صادرا من سفينة أخرى.

يصيح صوت بأن شــخصا ما، لا يعلم بما وقع ... لم يســمع الصراخ... يجب إخباره...

تصــدح الموســيقى قويــة في كل جانــب، تغمــر القمريات، والمحركات، والقاعات...

- ينبغي أن نذهب لتنبيهه.

صوت واضح، وشاب يقول:

- لا، لماذا تنبيهه؟

صوت آخر، يقول باكيا:

– علـــى العكس، ينبغي أن نطلب من العـــازف ألا يتوقف عن العزف...عـــن العزف خصوصا. من أجل الفتى...ينبغي أن نقول له ذلك. هذه الموسيقى خصوصا... التي عليه أن يعرفها...لأنها تسمع في كل مكان...

موســـيقى الشـــارع هاته، والتي على موضة الشباب في ذلك الوقت، والتي تعبر عن السعادة المجنونة للحب الأول، وعن الأسى البالغ، وغير القابل للعزاء، لفقدانه.

تنتشر الضوضاء، وتترك الموسيقى تتواصل آتية من القاعة.

السفينة كلها، تستمع، وتبكي الشاب المجهول.

تركت الطفلة أمها. إنها تبحث عن قاعة الموسيقى.

ينطفئ الضوء في السفينة كلها.

توجد قاعة الموســـيقى في مقدمة الســـفينة. ينيرها انعكاس ضوء المشـــاعل على البحر. الباب مشرع. تشـــعر الطفلة، فجأة بالأمل. أحيانا ننخدع، وأحيانا نصيب... لا يمكن أن نعرف ذلك أبدا. فالكل يقول ذلك.

تتوجه نحو الباب وتنظر.

كان هناك، بشـــعره الأســـود. يرتدي بذلة بيضـــاء من صنع تقليدي. إنه متقدم في السن، من دون شك...

لاتزال تنتظر، تنظر. لا.

ليس هذا. لن يكون هذا أبدا، هذا الذي أراد أن يموت خلال الثواني التي سبقت حركته نحو الدرابزين.

انتهى الأمر.

تمــددت الطفلة على الأرض، تحت إحــدى الطاولات باتجاه الحائط. الشخص الذي يعزف على البيانو لم يسمعها، ولم يرها. كان يعــزف، مــن دون توليفة، من الذاكرة، فــي القاعة المظلمة، فالس الشارع الشعبي، اليائس.

نور الغرفة، هو دائما، نور المشاعل المنكسر.

غمرت الموسيقى السـفينة المتوقفة. غمرت البحر، والطفلة، وأيضــا الطفل الحي الذي يعزف علــى البيانو، ذلك الذي يقف بعينــين مغمضتين، جامــدا، ومعلقا في الميــاه الثقيلة والعميقة للبحر.

* * *

بعد الحرب بسنوات... الجوع، الموتى، المعسكرات، الزواجات، والانفصالات، الطلاقات، والكتب، السياســة، والشــيوعية، ثم اتصل بالهاتف. هذا أنا. من الصوت، تعرفت عليه، هذا أنا، أردت سماع صوتك فقط. قالت: طاب يومك. كان يشعر بالخوف، مثل الســابق، من كل شيء، كان صوته يرتعش، ما جعلها تتعرف على لهجة الصين الشمالية.

قال شيئا عن الشــقيق الصغير لم تعرفه: لم يتم العثور على جسده، وبقي من دون دفن.لم ترد عليه. سألها هل مازالت هناك، علــى الخط، ، قالت له نعم، وإنها تنتظر أن يتكلم. قال إنه غادر ســاديك، بسبب دراســة أبنائه، لكنه سيعود إليها فيما بعد، لأنه يرغب في العودة إلى هناك فقط.

هي ســألته عن طان، ماذا حل بــه. قال إنه لم يتوصل، أبدا، إلى أخبار عن طان. ســألت: ولا خبر؟ قال: مطلقا. سألت، كيف

يفسر ذلك، قال إنه يعتقد أن طان كان يرغب في لقاء عائلته في غابة سيام، وقد يكون ضاع هناك في الغابة، ومات.

قال: من الغريب، بالنســبة إليــه، أن قصتهما ظلت كما كانت مــن قبل، وإنه مازال يحبها، وإنه لن يســتطيع أبدا أن يكف عن حبها طيلة حياته. وسيحبها حتى الموت.

وصله صوت بكائها عبر الهاتف.

ثــم، ومن بعيد جدا، من غرفتها ربما، لم تقطع الخط، لايزال يسمع صوت بكائها. ثم حاول أن يواصل الاستماع. لكنها لم تكن هناك. لقــد أصبحت لا مرئية، لا يمكن الوصول إليها. ثم بكى. بكى كثيرا من أعماقه.

المؤلف في سطور

إيرنست همنغواي

- ولد سنة ١٨٩٩ في أوك پارك، في ولاية إلينوي الأمريكية.
- بعد تخرجه في المدرسة الثانوية، عمل صحافيا لمدة ستة أشهر، قبل أن يلتحق بالجبهة الإيطالية بصفة سائق سيارة إسعاف متطوع خلال الحرب العالمية الأولى. ثم حصل على وسامين من الحكومة الإيطالية تقديرا لشجاعته.
- انتقل للعيش في باريس سنة ١٩٢١، حيث انضم إلى مجموعة كتاب المهجر الأمريكان من أمثال غيرترود شتاين وإزرا پاوند. لكنه عاش أيضا في ما بعد في كي وست، في ولاية فلوريدا، وإسبانيا، وكوبا.
- بالإضافة إلى الحرب العالمية الأولى، شهد همنغواي أيضا الحرب اليونانية-التركية، والحرب الأهلية الإسبانية، ثم الحرب العالمية الثانية. وقد استقى موضوعاتِ عددٍ من قصصه ورواياته من هذه التجارب التي عاينها بصفة مراسل حربيّ.
- نشر عددا كبيرا من الروايات والمجموعات القصصية، وله مسرحية واحدة.
- نال جائزة پولِتسر، وهي أرفع جائزة أمريكية أدبية سنة ١٩٥٣، كما منحته الأكاديمية الأمرِيكية للآداب ميدالية الاستحقاق للرواية. وفي سنة ١٩٥٤ نال جائزة نوبل للآداب.
- كان أسلوبه في السرد الأدبي من نوع السهل الممتنع، حيث يترك شخوصه يعيشون حياتهم ولا يقول عنهم شيئا، بل يجعل أفعالهم هي التي تشي عن دواخلهم. وقد تأثر عدد كبير من الكتاب بهذا الأسلوب.
- تزوج أربع مرات، وكان يعشق الصيد بأنواعه والحياة البرية، ويهوى الملاكمة ومصارعة الثيران. لكنه في السنوات الأخيرة من حياته تكالبت عليه الأمراض، فمات منتحرا سنة ١٩٦١.

المترجمة
في سطور

د. موسى الحالول

- من مواليد ١٩٦٥، الرقة، الجمهورية العربية السورية.
- درس الأدب الإنجليزي في جامعة حلب، وتخرج فيها سنة ١٩٨٧.
- حصل على الماجستير والدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة پِنسِلڤانيا الحكومية، الولايات المتحدة الأمريكية، وتخرج سنة ١٩٩٥.
- درس الأدب الإنجليزي في جامعة تشرين بسورية، ثم في جامعتي جرش والعلوم التطبيقية بالأردن. وهو الآن أستاذ مشارك في جامعة الطائف بالمملكة العربية السعودية.
- نشر عددا من الكتب المترجمة عن الإنجليزية هي: «النبوءة والرونيات: من الأدب الإسكندنافي»، «خفايا ما بعد الحداثة»، «هكذا تكلم الثايكنغ»، «حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم»، «حكايات إيسوب» (وهذا الأخير بالاشتراك مع سمر رزق).
- كما ترجم إلى الإنجليزية رواية فخري قعوار، «عنبر الطرشان»، وجزءا من رواية رشيد بوجدرة، «ليليات امرأةٍ آرِق».
- له مجموعة قصائد وقصص قصيرة منشورة بالإنجليزية بعنوان: «قواعد جديدة للنظام العالمي الجديد»، وآخر إصداراته كتاب نقدي عن الأدب العربي بعنوان «العربية المعذبة».

المراجعة
في سطور

إصدارات قادمة

المجموعة القصصية الكاملة

(الجزء الأول)

لإرنست همنجواي

ترجمة: د. موسى الحالول

مراجعة: د. إسماعيل صافية

(تُرجمت عن الإنجليزية)

ما صدر من هذه السلسلة

الرقم	العنوان	المؤلف
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف : جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف : هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
337	اليبروح	تأليف : نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف : جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

	الأدغال والسهول العشبية تحكي	
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهايكو مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّـورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيـام الخمسة الأخيـرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها»	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بُول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فُروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	–	١٢	–	١٢	–	٢٥	–
الأفراد داخل الكويت	١٠	–	٦	–	٦	–	١٥	–
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	–	١٦	–	١٦	–	٣٠	–
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	–	٨	–	٨	–	١٧	–
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	–	٥٠	–	٣٠	–	٢٠	–	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	–	٢٥	–	١٥	–	١٠	–	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	–	١٠٠	–	٥٠	–	٤٠	–	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	–	٥٠	–	٢٥	–	٢٠	–	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	**مدة الاشتراك:**
المبلغ المرسل:	**نقداً/ شيك رقم:**
التوقيع:	**التاريخ:** / / ٢٠٠م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

أسماء وكلاء التوزيع

الكويت:
شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع
الشويخ – المنطقة التجارية الحرة – شارع الموفنبيك –
مبنى رقم D14 الدور الأول
ص. ب ٢٩١٢٦ – الرمز البريدي ١٣١٥٠
ت ٠٠٩٦٥٢٤٦١٣٥٣٥ فاكس ٠٠٩٦٥٢٤٦١٣٥٣٦

الإمارات:
شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع
دبي، ت: ٩٧١٤٢٦٦٦١١٥ – فاكس: ٢٦٦٦١٢٦
ص. ب ٦٠٤٩٩ دبي

السعودية:
الشركة السعودية للتوزيع
لإدارة العامة – شارع الملك فهد (الستين سابقا) – ص. ب ١٣١٩٥
جدة ٢١٤٩٣ ت ٦٥٣٠٩٠٩ – فاكس ٦٥٣٣١٩١

سورية:
المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
سوريا – دمشق ص.ب (٩٦٣١)١٢٠٣٥
ت – ٢١٢٧٧٩٧ فاكس ٢١٢٢٥٣٢

مصر:
دار الأخبار للتوزيع
شارع الجلاء رقم ٦ – القاهرة
ت – ٥٨٠٦٤٠٠ فاكس ٥٧٨٢٦٣٢

المغرب:
الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر والصحافة (سبريس)
زنقة سجلماسة الدار البيضاء ٧٠
ت ٢٢٢٤٩٢٠٠ فاكس (٢١٢) ٢٢٢٤٩٢١٤

تونس:
الشركة التونسية للصحافة
تونس – ص. ب ٤٤٢٢
ت – ٣٢٢٤٩٩ فاكس – ٣٢٣٠٠٤ (٢١٦٧١)

لبنان:
شركة الشرق الأوسط للتوزيع
ص. ب ١١/٦٤٠٠ بيروت ٢٢٢٠/١١٠٠١
ت – ٤٨٧٩٩٩ فاكس – (٩٦١١) ٤٨٨٨٨٢

اليمن:
القائد للتوزيع والنشر – ص. ب ٣٠٨٤
ت – ٣/٢/٣٢٠١٩٠١ فاكس (٩٦٧) ٧/٣٢٠١٩٠٩

الأردن:
وكالة التوزيع الأردنية
عمان ص.ب ٣٧٥ عمان – ١١١١٨
ت – ٥٣٥٨٨٥٥ فاكس (٩٦٢٦) ٥٣٣٧٧٣٣

البحرين:
مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف
ص. ب ٢٢٤/ المنامة – البحرين
ت ٢٩٤٠٠٠ – فاكس (٩٧٣) ٢٩٠٥٨٠

عمان:
المتحدة لخدمة وسائل الإعلام
مسقط ص. ب ٣٣٠٥ – روي الرمز البريدي ١١٢
ت ٧٠٠٨٩٦ – ٧٨٨٣٤٤ فاكس ٧٠٦٥١٢

قطر:
دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة ص. ب ٣٤٨٨ – قطر
ت ٤٦٦١٦٩٥ فاكس (٩٧٤) ٤٦٦١٨٦٥

فلسطين:
وكالة الشرق الأوسط للتوزيع
القدس/ شارع صلاح الدين ١٩
ص. ب ١٩٠٩٨ ت ٢٣٤٣٩٥٤ فاكس ٢٣٤٣٩٥٥

السودان:
مركز الدراسات السودانية
الخرطوم ص. ب ١٤٤١ ت ٤٨٨٦٣١ (٢٤٩١١)
فاكس ٣٦٢١٥٩ (٢٤٩١٣)

نيويورك:
MEDIA MARKETING RESEARCHING
25 - 2551 SI AVENUE LONG ISLAND CITY
NY - 11101 TEL - 4725488
FAX 1718 - 4725493

لندن:
UNIVERSAL PRESSلله MARKETING LIMITED
POWER ROAD. LONDON W 4SPY
TEL 020 8742 3344
FAX: 2081421280

سلسلة إبداعات عالمية

«إبداعات عالمية» سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكانت في السابق تصدر - شهريا - عن وزارة الإعلام تحت اسم سلسلة «من المسرح العالمي» حتى بعد انضمامها إلى المجلس الوطني عام ١٩٩٤، وكانت تعنى بنشر المسرحيات العالمية فقط.

وقد صدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر ١٩٦٩، تحت عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم»، تأليف: مانويل جاليتش، وبعد تغيير مسماها إلى سلسلة إبداعات عالمية عام ١٩٩٨، أصبحت تعنى بنشر الترجمات الإبداعية الراقية من لغات مختلفة، وتنطلق أهداف السلسلة (إبداعات عالمية) من فلسفتها في نشر الوعي الثقافي القائم على التراث الإنساني، من خلال نشر وتقديم ترجمات رصينة من الآداب العالمية، من روايات وقصص قصيرة ودواوين شعر ومسرحيات... وغيرها، من لغاتها الأصلية، بهدف تزويد المكتبة العربية بآثار هذه الثقافات المختلفة.

وترحب السلسلة باقتراحات النشر والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون وفق الشروط التالية:

١ - أن تكون المادة المقترح ترجمتها مميزة في المستوى الفكري والأدبي الرفيع، ولم يسبق نشرها في أي مكان آخر.

٢ - يجب ألا يزيد حجم المادة على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدواه.

٣ - يجب تقديم النص الأدبي المقترح نشره، أو ترجمته مع الكتاب في لغته الأصلية، ويرسل مطبوعا على الآلة الكاتبة مع وضع نسخة من النص المترجم في ديسك أو CD، مع تدوين أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة.

٤ - السلسلة غير مسؤولة عن إعادة الكتب الأجنبية والنصوص الأصلية أو المترجمة التي لا يتم قبولها.

٥ - المواد المقدمة للنشر أو الترجمة تخضع للتحكيم العلمي على نحو سري من قبل هيئة تحرير السلسلة، ويجري إرجاع النصوص إلى أصحابها لإجراء التعديلات أو الإضافات اللازمة عليها قبل نشرها، كما يجب ألا تحتوي النصوص على عبارات منافية للدين أو الأخلاق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المترجم للنشر تصرف مكافأة للمترجم بمعدل ٢٠ فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي.

وفي جميع الحالات ينبغي إرسال سيرة ذاتية وافية للمترجم، تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه (C.V) الأدبي السابق، وعنوان المراسلة التقليدي والإلكتروني، واسمه الثلاثي باللغة الإنجليزية حسب جواز سفره، بالإضافة إلى كتابة اسم البنك الذي يتعامل معه ورقم حسابه الذي ستحول المكافأة عليه.


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

الفهرس



عشيق الصين الشمالية

نقدم إلى القارئ الكريم في هذا العدد رواية «عشيق الصين الشمالية»، وهي من أروع روايات «مارجريت دوراس» الكاتبة والمؤلفة والأديبة الفيتنامية الأصل، الفرنسية في ثقافتها ودراستها الجامعية، إذ إنها درست العلوم السياسية والقانون بجامعة السوربون، لتحصل على الشهادة الجامعية في العام ١٩٣٥، ثم استقرت وعاشت في فرنسا حتى وفاتها عام ١٩٩٦.

لقد كتبت دوراس - واسمها الحقيقي هو مارجريت دوناديو ـ عن ذاتها وحياتها الشخصية والعائلية باستمرار في أكثر كتاباتها الأدبية. فقد بدأت بذكر حياتها الخاصة والاجتماعية منذ روايتها الأولى «السفهاء» الصادرة في العام ١٩٤٢، وحتى كتابها الأخير «هذا كل شيء» الذي صدر في العام ١٩٩٥.

عملت دوراس كاتبة للسيناريو ومسرحية ومخرجة، حيث نشرت في العام ١٩٧٣ كتاب «إنديا سونغ» (الأغنية الهندية) على شكل نص مسرحية فيلم. وبدأت كتابة رواية في العام ١٩٨٠ بعنوان «صيف ١٩٨٠». بعدها أصدرت روايتها الشهيرة «العشيق» في العام ١٩٨٤، وهذه الرواية حصلت على جائزة «الجونكور»، أرفع الجوائز الأدبية في فرنسا، وبيع منها أكثر من ٣ ملايين نسخة، وترجمت إلى ٣٠ لغة. وبعدها كتبت هذه الرواية التي بين يدي القارئ الآن في العام ١٩٩١، وتناولت هذه الرواية العود الأبدي والشغف الطفولي الدفين في ثنايا حياة مختلفة. إنها رواية البكاء بامتياز.

وفي روايتها هذه تمثل حياة دوراس الموضوع الرئيسي للأحداث، حيث أمضت معظم طفولتها في الهند الصينية، وكانت على علاقة حب برجل صيني ثري، تسميه في معظم أعمالها بالسيد «جو» أو «ليو». لذلك فإن كتابة دوراس تحولت في أعمالها الأدبية إلى تعبير عن الصمت.

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٠٠٢
ردمك: ٦-٢-٣٠٢-٠-٦٠٩٩٩